

المذكرات

في ذكر حال السالك في سبيله إلى الله تعالى
للإمام ابن عطاء الله السكندري
رحمه الله تعالى

المكاتب

[مكاتبة المؤلف في ذكر حال السالك إلى الله تعالى]

وبعدما أنهى الكلام في الفكرة . . أخذ يتكلم في نتيجتها ؛ وهو ما ينتج من حسن المعاملة لله على صدق العزيمة وتجريد الهمة ؛ وَمِمَّا كَتَبَ بِهِ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ بِقَوْلِهِ :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ أَلْبَدَايَاتِ مَجَلَاةُ أَلْنَهَايَاتِ

في كل الأمور ؛ فمن كان مبارك البداية . . كان ميمون النهاية ، ومن كانت بدايته بالله . . كانت إليه نهايته ، وكل مبدأ لأمر . . يكون انتهاؤه إليه ، وتظهر ثمرة ذلك المقصد عليه ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

وَإِنَّ مَنْ كَانَتْ بِاللَّهِ بَدَايَتُهُ . . كَانَتْ إِلَيْهِ نِهَائَتُهُ

ومعنى البداية بالله : أن يكون في أول كل أمر يبدأ فيه به شاهد لحوله وقوته ؛ كما ورد في الحديث : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ - أي : حالٍ يُهْتَمُّ به - لَا يَبْدَأُ فِيهِ بِذِكْرِ اللَّهِ . . فَهُوَ أَجْذَمُ » ^(١) أي : مجذوم مقطوع البركة . والمريد الصادق : إذا كان في أول بدايته مستعيناً بالله . . دام سلوكه ،

(١) رواه أحمد (٣٥٩/٢) ، والدارقطني (٢٢٩/١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ووصل بغيته ومراده ؛ وهو انكشاف الأمر له شهوداً وعياناً بعد أن كان علماً وإيماناً .

ومن كان أول بدايته بشهود نفسه وما منها . انتهى إلى عجز وعدم ، فإذا كان المريد مستعيناً في جميع حركاته وسكناته في بدايته على الغيب لا على الكشف . . انكشف له في نهايته حقيقة ذلك على الشهود والعيان ، فيبقى قرير العين ، متسع الجنان ؛ لما يجد من ورود روح الرحمن ، الوارد بالتأييد على ممر الأزمان ، ولي في ذلك :

من كان بالله مبدا أمره فكذا تكون ألى الله غايات النهايات
ومن يكون على الأغيار معتمداً فلم يحقق تحقيق البدايات
والسالكون على نهج السبيل لهم علم وعين وحق مستقيمات
فالعلم غيب ونور العين يكشف ما للحق من وصفه المصون آيات
وإذا كان المريد مجموع الهم ، عاكف السر على الله . . شغل - لا
محالة - عن الأغيار ، وذهل عن الآثار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَالْمُشْتَغِلُ بِهِ : هُوَ الَّذِي أَحَبَّهُ وَسَارَعَ إِلَيْهِ ، وَالْمُشْتَغِلُ عَنْهُ : هُوَ
الْمُؤْتَرُّ عَلَيْهِ

ومن علامات تحقيق البداية : الشغل به عما سواه ، ونفي كل شاغلٍ إلا إياه ، مع المحبة والطوع والمسارة إلى المحاب من غير ملل ولا سآمة ، فعلامة كونه محبوباً لك : الشغل به عما سواه من جميع ما تحبه وتهواه ، وإيثاره على ما عداه .

وعلامات المشتغل عنه من المحبوبات الغيرية : هو المؤثر عليه هذه أيضاً ، علامة دالة على إثارة على الأغيار ، ولا تؤثر على محبوباتك الجبلية إلا إذا عرفت شرف ما أنت تطلبه ، وترغب فيه من المشاهدات الروحية والتدليات اللطفية ، فلا شك يهون مفارقة كل محبوب ، ويؤثر - لا محالة - على كل مرغوب .

والشغل به : هو طلب التحقق بمكارم الأخلاق ، والتعلق بمشاهدات الإلهية ، والخضوع لعظمة الربوبية ، والانطواء والاستكانة في كهف العبودية مع المحبة لذلك ، والاغتراب به .

والمشتغل عنه : هو الحظوظ والشهوات الأرضية والطبائع الحيوانية ، عرفنا الله قدر ما نطلب حتى يكون كل اشتغالنا طلبه ، فنشتغل عن الحظوظ العاجلة ، ولي في ذلك :

فالشغل بالله دأب الصادقين فما لهم إلى غيره في الكون تعويل
يرون في الناس شعثاً لا مقام لهم ما بين أظهرهم غبراً مجاهيل
لا يؤثرون على المحبوب كان لهم شغل وعن ما سواه ألا مشاغيل
فاليقين أساس مباني المقامات ، والتوكل ثمرة شجرة الفتوحات ؛
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه عاطفاً على ما أسلفه من الكلام في
هذا المقام :

وَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللَّهَ يَطْلُبُهُ .. صَدَقَ الطَّلَبُ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأُمُورَ
بِيَدِ اللَّهِ .. اجْتَمَعَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ

من أيقن - واليقين هو السكون وعدم الاضطراب ، فمن أيقن ؛

أي : استقر يقينه وتمكن إيمانه ، وباشر سويداء جنانه - أن الله يطلبه
بالوفاء بحق الربوبية .. صدق - لا محالة - في طلبه بأداء العبودية
على أكمل وجه وأتم هيئة ؛ لما شاهده من عظمة الربوبية وكمال
الألوهية ، فيحمله الحياء - لا محالة - والحب على الوفاء ، ويحثه
على مبادرة الصفاء ، ويحمله على ترك الجفاء ، فيوفي بهذا المشهد
حق شريعته .

(ومن علم) العلم الحقيقي الذي شاهده الخشية ؛ وهو ما كان
من فتح الغيوب في لطائف الأسرار والقلوب (الأمور) الصادرة
من خير وشر ، ونفع وضر ، وموت وحياة .. إلى غير ذلك من
مقتضيات الشؤون وآثار الأسماء (بيد الله) أي : إرادته وقدرته
وأمره ، وما هو مراد عنده في غيب علمه ؛ فاليد معلومة ، والكيفية
مجهولة ، والسكوت في مثل هذه المتشابهات حسنٌ محمود ،
وردّها إليه عند السلامة من المعارضات ، وأما إذا احتيج لتأويل
لرد مبتدع أو لم يجد الإنسان طمأنينة .. فيعدل به إلى مثل هذه
التأويلات .

فإذا علم ذلك الإنسان علماً قوياً ثابتاً .. حمّله ذلك على التوكل
على الله لا محالة ، والتوكل على الله هو عبودية القلوب لله ؛ لما يلوح
للقلوب من لوائح الحقيقة ؛ فلاضطراب مع لمعان تلك السحاب خطأ ،
ويسمونه في تقسيم طريقه : شهود صرف الحقيقة ، فيوفي بحق الحقيقة
في ذلك المقام ؛ كما وفى بحق الشريعة في مقام الإيمان الذي عبّر به
باليقين ، ولي في ذلك :

من كان يوقن أن الله يطلبه صدّق له في مبادي ظاهر الطلب

وَمَنْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّ الْأَمْرَ مُحْكَمَهُ بِيَدِ الْإِلَهِ سَلِمَ مِنْ مُورِدِ الْعَطِي
وعطف أيضاً بقوله على كلامه المتقدم :

وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِبِنَاءِ هَذَا الْوُجُودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ ، وَأَنْ تُسَلَبَ كَرَائِمُهُ

وأنتك - أيها الإنسان - لا يحزنك ما يفوتك من هذه الحظوظ
العاجلة واللذات الفانية والخيالات الكونية ؛ فإنها - لا محالة - أن تنهدم
هذه البنيان المشيدة ، وأن تبید هذه المحاسن العتيدة ، وتفرق هذه
الجموع العديدة ، وتفنى هذه الوجوه الناعمة النضرة ، وتزول هذه
الروائح العطرة ، وتسلب الكرائم المحبوبة ، فتُتِمَّ الولدان ، وتُجَدَّدَ
الأكفان ، وتُغَيَّرَ الألوان ، وتُرْمَلَ النسوان ، وتنتهب الجنمان طوارقُ
الحدثان ، وتفرق الجموع ، وتُذَرُّ لفرقه الدموع ، وتُبید مجموع جسمه
من الشتات سحائب هموع ، فكيف لا يسلى عما هو عن قريب صائر
إلى الفناء والشتات ؟!

وإذا علمت أن هذه الملاذ المحبوبات لا بد أن تزول عنك أو تزول
عنها .. فلا جرم لا تعباً بما فاتك منها إن كنت ذا عقل سليم ، ولي في
ذلك :

لا بد لهذا البنا المشهود ظاهره أن ينهدم منه بنيان وأركان
وكل ما كان من جمع يُسَرُّ به تسلب كرائم ما في الكون يا أنسان
فإذا كان العقل سليماً .. نظر في عواقب الأمور وبواطنها ، فلم يغترَّ
بظواهر زينتها ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

فَالْعَاقِلُ : مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَى ، أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَى ؛ قَدْ أَشْرَقَ
نُورُهُ ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ

العاقل حقيقة : من كان بما هو أبقى ؛ وهو الجزاء الأخروي
الموعود لمن صبر عن هذه الدنيا الفانية ، وليس كذلك إلا
الزاهدون ، كما أفتى بذلك إمامنا الشافعي رضي الله عنه حيث قال :
(لَوْ وَقَفَ عَلَى أَعْقَلِ النَّاسِ . . صُرف إلى الزهاد في الدنيا) ^(١) ،
قد أشرق نوره في سويداء قلبه ؛ كما ورد : « إِنْ النُّورَ إِذَا دَخَلَ
الصُّدْرَ . . انشَرَحَ » ^(٢) بمعنى : اتسع ، ولا يتسع إلا بالنور الوارد
عليه من الله ، وهو الذي أشهده بواطن الأمور وعواقبها ؛ لأنه نزل
منه في الباطن ، قال الله : ﴿ أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ
مِّن رَّبِّهِ ﴾ .

وظهرت على الظاهر تباشيره ، فأشرق على ظاهر البشر أنوار
التبشير ، فتزكت الأعمال والأقوال ، وحسنت منه سائر الأفعال ، وأشرق
ظاهر الزجاجة ، وانبسط عليه شعاع المصباح ، فظهر على ظاهره شعار
الصلاح ، ولاح على وجهه شاهد الفلاح ، فتظهر منه أفعال حميدة
وصفات جميلة ، ولي في ذلك :

العاقل الكامل الفرد الذكي إذا لم يؤثر الفاني الداني على الباقي
قد أشرقت في سويداء القلب نور وما على الظواهر من آثار إشراق
أضأ بزيت في المشكاة منه فما في القلب يظهر في سمع وأحداق

(١) تقدم (ص ٧٥٤) .

(٢) تقدم (ص ٥٤٠) .

ومن علامات وصول النور إلى الصدر : ما ذكره المؤلف وهو مقتبس من معنى الحديث ؛ لذلك قال :

فَصَدَفَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ مُغْضِيًّا ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُوَلِيًّا ، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطَنًا ، وَلَا جَعَلَهَا سَكَنًا

هذه غاية النفرة عن الدنيا ؛ وهو الصَّدُوف ، يحتمي مسالكها ، ويجتنب مواطنها ، ولا يوالي أبنائها وأهل الرغبة فيها ، قد غَضَّ عين قلبه عن زخارفها وقذئ آفاتِها ؛ لئلا يصيب قذاها عين بصيرته فيختلط نظرُها ، ولَحْدَقَة البصيرة المنيرة أولى بالصيانة من الحَدَقَة الظاهرة ؛ إذ بالحَدَقَة الظاهرة ينظر الأغيار الفانية ، وبالبصيرة يشاهد الأسرار العلية ، والمقامات الأخروية .

(وأعرض بظاهره عنها مولياً) كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرض عليه الأنصار اللقاح ، فأعرض بوجهه عنها ، فيقولون : يا رسول الله ؛ إِنَّا نعرض عليك كرائم أموالنا لتنظرها ، فيقول صلى الله عليه وسلم : « إن ربي أمرني ألا أنظر إلى زهرة الحياة الدنيا ، فقال جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ » أو كما قال ^(١) ، فلم يتخذها وطنًا ، بل كان كالمسافر العَجَل إلى الوطن المحبوب ؛ كما قال القائل في ذلك :

مُسْتَوْفِزُونَ عَلَى رَجُلٍ كَأَنَّهُمْ وَفَدَّ يُرِيدُونَ أَنْ يَمْضُوا وَيَرْتَحِلُوا

(١) بنحوه عند أبي عبيد في « غريب الحديث » (٩/٣) .

فالإعراض عنها والتولي دليلٌ على الإغضاء بالقلب عنها ، بل شهد
الآخرة أقرب إليه منها ، وكان بكلية اهتمامه مقبلاً عليها ومؤثراً لها ،
هذا نظر أولي العقول والعلماء الفحول ، تحرّروا فيها نظر أولي الألباب ،
واقترفوا آثار الأنبياء وسادات الأولياء الذين لم يستوطنوها ؛ كما قال
قائلهم ^(١) :

إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفِينَا
ولي في ذلك :

قد أغضوا عن زخارفها وما نظروا لزينة بل عن الأغيار قد صدفوا
وأعرضوا عن ظواهرها وما وقفوا وباينوا كل مألوفٍ قد اقترفوا
وخامرت قهوة العرفان فاتصفوا بعالم القدس والتحقيق فاعترفوا
فيذا عرف فناء هذه الدار واضمحلال الأغيار . . لم يقرّ لمطية عزمه
قرار ، وانتهج نهج الحقائق والأسرار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

بَلْ أَنْهَضَ الْهَمَّةَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ ، وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِيناً بِهِ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِ

هذه أصح طرق المريدين ، وأنجح وسائل السالكين ؛
وذلك بأن يجعل الله لهم همماً علوية ، تنهض بهم إلى الأخذ

(١) كان الإمام الطرطوشي كثير الإنشاد لها ، كما في « وفيات الأعيان » (٢٦٢/٤) .

بالكلية ، إلى المنازل القدسية والمشاهد الحقية ، ومع ذلك هم فيها مستعينون به فيما هم بصدده من الانكماش في العبادات ، والتخلق بالأخلاق الحميدات ، واجتناب مصائد الشهوات ومعاطب الهفوات ، فهم قائمون بظواهرهم بكامل العبادات ، ومباينون حبائل العادات ، ومستمكون بقلوبهم وأسرارهم بورود الألفاف وسوابغ المنن وتنزل الرحمات ، ونزول البركات والمعونات من خالق البريات .

فمن كان بهذه الحالة . . فقد أدرك خالص الإرادة ، ونال ثمرة السعادة ، ولم ينقطع عن الله بمألوف العادة ؛ فالحكم المتقدم ذكرها للمريد في التجلي وهو بعد لم يأخذ في السير إلى الله ، وقوله : (بل أنهض الهمة فيها) أي : الدنيا ؛ لأن فيها ميدان السلوك .

وهذه - أي : إنهاض . . . - ابتداء في السير ؛ وهو الأخذ في التجلي ، ويكون مستعيناً في ذلك بالله ؛ ليصل إلى نيل بغيته وغاية مقصده ، لأن من كان بالله استعانتة . . توالى من الله إعانتة ، وإذا لم يكن من الله إعانة . . لم تغن عنه ظواهر الأدلة ، ولم تنفعه إضاءة الشموس وأنوار الأهلّة ، ولي في ذلك :

من بعدما يخلّي الإنسان ساحته عن الشوائب والأشغال بالغير
لا شك أن السبيل الحق بان له وشاهد السر مبسوطاً على الصور
فإذا صحت له هذه الحالة التي هي الاعتماد على فضل الله
وإعانتة . . لم تزل مطية العزم في السلوك جادة ؛ كما قال المؤلف
رضي الله عنه :

فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لَا يَقَرُّ قَرَارُهَا ، دَائِمًا تَسْيَارُهَا ، إِلَى أَنْ أَنَاخَتْ
بِحَضْرَةِ الْقُدْسِ ، وَبِسَاطِ الْأُنْسِ ، مَحَلِّ الْمَفَاتِحَةِ وَالْمُوَاجَهَةِ ، وَالْمُجَالَسَةِ
وَالْمُحَادَثَةِ ، وَالْمُشَاهَدَةِ وَالْمُطَالَعَةِ ، فَصَارَتْ الْحَضْرَةُ مُعْشَعَشَ قُلُوبِهِمْ ؛
إِلَيْهَا يَأْوُونَ ، وَإِلَيْهَا يَسْكُنُونَ

فحيث كان المريد - كما وصفنا - من طهارته عن الأكدار ، ونخليه
عن الأغيار ، وتصفيته عن كدر الآثار ، وكان مع ذلك آخذاً في السير في
أطوار الوجود ، قاصداً التجلي والشهود . . (ما زَلَتْ) عن المقصد ولا
حالت عن الطريق (مطية عزمه) وشبّه عزمته ، وقوته أردنا بالمطية
- والمطية : هي النجبة من الإبل - المختارة لقطع المسافة البعيدة في
المدة القريبة ، وليست كل الإبل كذلك ، بل لم تسم مطية إلا التي
تستطوي للسير وتطوي له من بين الإبل لقوتها وصبرها .

فهذه عبارة حسنة كما هو عادته في كلامه الاستعارة بالأمور الحسية
عن الأمور المعنوية ؛ ليفهم ذلك كل السامعين ، ويقرب إلى الأفهام
معنى الكلام .

(لا يقر قرارها) والقرار : هو السكون والركون ، وعزيمة الصادق لا
تسكن ، ولا إلى شيء دون المراد تركن .

ومرادها ومنتهى مقصدها : هو الكون في أطوار وأنوار التجلي
والحضور ، ورفع الحجب والستور ، دائماً في تسيارها ، لم تقطع سيرها
العوارض ، ولا تقيدها العوائق ، فلم تزل كذلك جادة في السير قائمة :
﴿ لَا ضَيْرٌ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ ، إلى أن وصلت إلى غاية المراد ، ومنتهى
قصد القُصَاد ، ومحل كرامة الرائيدين والوُفَاد ، بفائضات المواهب

والإمداد ، وحيث تُنِيخ نجائب الطلاب بباب المتفَضِّل الوهاب ، وحيث يواجه الأحباب بالتجلي والخطاب ، وحيث ترفع عن الحبيب السر والحباب ، وحيث يؤذن بالسؤال والجواب ، نهاية سير الهمم ، واستبانة الطريق الأَمَم ، والمنهج الأقوم ، وتجلي الأسرار ، وشروق الأنوار ، الحضرة القدسية عن لوث رؤية الأغيار ، المنزهة عن كثافة الآثار .

(حضرة القدس) والتقديس : هو التطهير ، والقدسي : هو المحل الطاهر الأنفس الأعز ، وعند الكون في هذه الحضرة الأنيسة والرتبة الأريسة . . تظهر أسرار وشوارق أنوار ، فينمحي عن إنَّيته ، ويغيب عن شاهد غيبته ، فلا يبقى له أثر ، ولا يسمع له خبر ، فيتخلف هنالك عنه آثاره ، وتنمحي عنه شواهد أفعاله وأوصافه ، فيأخذ في السير فيه بعد السير إليه .

وأشار المؤلف رحمه الله إلى بعض ما يتجلَّى للواصلين من سنيات الأحوال ، فقال : (وبساط الأنس) فالإشارة بالبساط إلى التجلي في حالة البسط ؛ وهو ما يبسط الله لعبده من أسرار التولي والطف التجلي ، ما يحول بينه وبين رؤية وجود الأغيار وظهور الآثار ، فلا يشهد جنة ولا نار ، ويدار على السر عقار ، تحت ملابس وخمار ، فيختار ، ولا يعرج على سكن ولا دار ، ولا أهل ولا عقار ، بل غريق في بحار لا تبين فيها الجهات والأقطار ، ومستبدل بالأنس عن الإنس ، فيؤانس بأنواع ملاطفات ، ولذيد محاورات ، وخفي مسارات ، وشهي مسامرات ، محل المفاتيح بفتوح العلوم اللدنيات ، والخزائن العرشيات ، والذخائر الوصفيات ، والمعاني الذاتية ، والمواجهة بالتجليات الوصفيات ، والمحاسن العليات ، في العوالم الجبروتيات ، والغيوب العرشيات ،

(والمجالسة) في الحظائر الذكريات ، « أنا جليس من ذكرني » ^(١) ،
(والمحادثة) بانكشاف معاني **الكلم** القدسيات ، والإشارات
القربيات ، والمخاطبات الروحيات ، وانتشار ما استودع في الذوات
من الخطاب في عالم الذرات ، يوم ﴿ أَلَسْتُ ﴾ بما كان وما هو كائن
إلى يوم نشر الأموات ، وجمع الشتات ، ونشر الصحائف بالحسنات
والسيئات ، (والمشاهدة) للمتجليات الوصفيات ، (والمطالعة)
للأنوار الذاتية .

فإذا كان كذلك .. فلا شك أنه بين المشاهدات والمخاطبات لم
يبق له بقية التفات ، لا إلى ماضٍ ولا إلى آت ، بل صارت الحضرة
لقلبه داراً ، ولسرّه قراراً ، ولروحه عقاراً ، فالإشارة بالمعشعش الذي هو
مسكن الطير .. أولى من التعبير بغيره ؛ لأن القلب من العالم السماوي
الروحي ، وأهل ذلك العالم موصوفون بالأجنحة ، ﴿ أُولَى أَجْنَحَةٍ ﴾ ، والطير
لا تسكن في غير وكرها ، ولا تفر دون معشعشها ، فإليها يأوي ، وفيها
تسكن وتشوي .

إذا أوت النفوس إلى الشهوات ، وسكنت بالأسباب الدنيويات ،
وتقيدت بالعادات الطبيعية .. فأرواح الواصلين متنعمة في تلك
الحظائر الأزليات ، الدائمة الأبديات ، لا يخشون من انقطاعها عنهم ،
ولا انفلاتها منهم ، إذا ضلّي بحرارة الفراق ، وأُقلِقَ للمساق عن الأهل
والمال من كان لها عَشَّاق ، عند بلوغ الروح التراق ، فيحترق سره بنار
الفراق ، وخوف الإشفاق مما هو لاق .

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٠) ، عن كعب قال : قال موسى عليه السلام : (يا
رب ؛ أقریب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ قال : يا موسى ؛ أنا جليس من ذكرني) .

فهذه عباراتٌ مليحةٌ من بعض معاني يفتح الله بها على الصادقين ،
وينتهي إليه سير السالكين ؛ فإن كان الله يريد أن يرجعه للإرشاد ،
ويقرب أهل الشقاق والعناد ، ويطوي برؤية المسافات البعاد ، ويوصل
به إليه طوائف الزهاد والعباد . . . أنزله في الوجود مسربلاً بملايس
الأسرار ، ومؤيداً بشوارق الأنوار ، ينزل في الأطوار ، ويتجلى عن
الآثار بنور في صورة نار ، تحرق كثائف الأغيار ، ويلبس تجلي اسمه
القهار ، فيقهر الظلم والأشرار ، وإن شاء سبحانه . . . جعله غريق
التجليات والأنوار ، فلا تسمع منه الأخبار ، فإذا رُدَّ إلى الأغيار . .
أباح بعدم الاصطبار : ردوا حبيبي إليّ ؛ فليس له عني اصطبار ، ولي
في ذلك .

مطية العزم للعلياء مقبلة	فلم يقربها من دونها الغير
مديمة السير عن ساقٍ بلا مهلٍ	ما عاقها حرٌّ هجير لا ولا مطر
حتى أناخت على عليا مقدسة	وبسط أنس محل الفتح والظفر
وواجه القادم الوجه العزيز وفي	ذاك التجلي يروق الناظر النظر
وجالس الضيف إكراماً ولاطفه	طيب الحديث تمام الأنس بالسمر
وطالع أوصاف ما في الصون منكم	عن العيون وشاهد برّه النضر
فصارت الحضرة العليا معشعشهم	تأوي إليها قلوب السادة الغرر
وساكنت خير مألوف به ألفت	من بعد طول بعاد أورثت ضرر
فإن أنزلهم الله في الوجود بعد استكمال حقائق الشهود . . . عادوا	
إلى الأشياء بالله كما خرجوا عنها به ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه	
في ذلك .	

فَإِنْ نَزَلُوا مِنْ سَمَاءِ الْحُقُوقِ وَأَرْضِ الْحُظُوظِ .. فَبِالْإِذْنِ وَالْتَّمَكِينِ ،
وَالرُّسُوحِ فِي الْيَقِينِ ؛ فَلَمْ يَنْزِلُوا إِلَى الْحُقُوقِ بِسُوءِ الْأَدَبِ وَالْغَفْلَةِ ،
وَلَا إِلَى الْحُظُوظِ بِالشَّهْوَةِ وَالْمُتَعَةِ ، بَلْ دَخَلُوا فِي ذَلِكَ بِاللهِ وَلِلَّهِ
وَمِنَ اللهِ وَإِلَى اللهِ

فإن أراد سبحانه صحوهم بعد محوهم ، وفرقهم بعد جمعهم ..
أنزلهم مؤيدين بالروح الرباني ، منصورين بالعز الصمداني ، ظاهرين
بالدمع الحقاني^(١) ، أنزلهم في أطوار الوجود ، يكتسبون كمال الحق
في مظاهر الوجود ، مؤذنين لحقائق الواحد المعبود ، فينزلون من منتهى
نهاية الجمع الأحدي إلى سماء ظهور تجلي معاني الأسماء ومقتضيات
الشؤون ، فيرجعون إليها بالأدب واليقظة ، ونزلهم أيضاً إلى أرض
الحظوظ البشري ليس بالشهوة والمتعة ، كما [أن] ذلك كله شأن أهل
الحجاب والقطيعة ، دخول الأشياء بحكم الشهوة والطبيعة ، ورجوعهم
تكميل للعباد ، ورحمة للبلاد .

فهم بطريق الإشارة الفرقة النافرة ، والعصابة الظافرة ، ﴿ فَلَوْلَا تَقَرَّرَ مِنْ
كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ ،
فاستفادوا الحسنيين : الفقه في الدين ، وشروق اليقين ، فيرجعون
إلى الأشياء بهذه الأوصاف متصفين ، وبهذه الخلال متحلين ، فيدخلون
في الأشياء بالفقه والبصيرة ، فلا يأخذون ولا يذرون ، ولا يعطون ولا
يمنعون ، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا عن إذن من الله .
شاهد ذلك يتراءى لهم في الوجود عياناً ، ولكن يتأدّبون مع الحكم

(١) في (أ ، ب) : (قاهرين بالدمع الحقاني) بدل : (ظاهرين بالدمع الحقاني) .

الشرعي ، يحكمون على أنفسهم بما كوشفوا دون غيرهم إلا من طريق الفتوى ، فهم الذين وقعوا على حقيقة الأمر إذ وهم المحجوبون وحكموا بالظنون ، فهم الذين يمشون بين الناس بالنور المجعول لهم .

فإذا كان الأمر لله بشاهد اليقين . . فآمنوا فيه بالله ؛ لأنهم لم يزايلهم شهود جمعهم في فرقهم ، ولا محوهم في صحوهم ، فهم بظاهر خلقيتهم وشهود صوريتهم في الوجود مشهودون ، وبباطن روحانيتهم في الشهود مفقودون ؛ فالبصائر في الشهود دائمة ، والأبصار في الوجود نائمة ، ومعظم مواجيد هذه الحالات لا تعرف إلا لأربابها ذوقاً وتحقيقاً .

وغيرهم ممن لم يحظ بهذه المشاهد ، ولم يكرع هذه الحياض والموارد . . قد يفهم بعض إشاراتهم بكمال تخلقه في غريزته ، ولكن إن وقف عند علمها دون ذوقها . . وقع في مهواة الدعوى ، وحُرم من المنن وحلاوة السلوى ، ولا بد أن يستبدل بما هو خير الأذنى ؛ كما شوهد من خلق كثير الوقوف عندما ظهر بمجرد القريحة في كتب المحققين ، وظنوا أنهم وقعوا على حقيقة من الوصال ؛ وهم يخطئون في عشواء وضلال وعمى وبطال ، لا يميزون بين الوصال والانفصال ، ولا بين الأقوال والأفعال ، ولا بين المقامات والأحوال ، بل بارزون في حلل الجدال ، ومصممون على ما يظهر لهم في تخبيط وخبال ، وأوهام وخيال ، فنعوذ بالله من الاغترار ، بما تحلى به الأشرار ، من الظهور بزي الأخيار ، والتلبس بملابس الأحبار ، وهم من الذين قال الله فيهم : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ .

فأهل الحق لهم سيما تميزهم ، وعلامات تعرفهم ؛ فإن دخلوا في الأشياء . . فبالله مستعينين ، وبالله عائذين ، ومن الله بالإذن آخذين ،

وإلى الله في جميع ذلك راجعين ، ولي في ذلك :

إذا أراد نزول القوم أنزلهم إلى سما حق معبود به نزلوا
وأرض حظ نفوس كان مرجعهم إليه منها وعن عاداتها ارتحلوا
لا ينزلون إلى حق بلا أدب ويقظة بل على التحقيق إن نزلوا
ولا الحظوظ بشهوة أو متاع الغافل الهمل ، فيدخل في الأشياء بالله
بعد أن خرج عنها به !! وهذا والله معنى الآية التي استشهد بها المؤلف
بهذا المعنى ؛ كما قال :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ لِيَكُونَ نَظْرِي إِلَى
حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي ، وَأَسْتَسْلِمَ بِي وَأَنْقِيَا بِي إِلَيْكَ إِذَا أَخْرَجْتَنِي

استشهد بهذه الآية الكريمة لما أسلفه من عبارته ، فبالدخول :
السلوك إلى الله ، والترقي في مراتب الشهود ، والتفاني عن الأغيار ،
والتخلص عن رؤية الآثار .

ومدخل الصديق : هو أن يكون في ذلك بالله ، ناظراً إلى حول الله
في تخلصه عن كدورات الأغيار ، وقوته في مواجهة الحقائق والأسرار ،
وورود المواهب والأنوار ، ولطائف المعاني والاستبصار ، عند تجلي
أسرار الأقدار ، المدهشة للقلوب والأسرار .

(وأخرجني مخرج صدق) في رجوعي إلى التدلي في الأطوار ،
ودخولي في الآثار ، فأكون مستسلماً لك ، ومنقاداً لمرادك ، مؤثراً
لإرشاد العباد على ما هو المحبوب لدي ؛ وهو كوني طمساً ومحوً ، لا

انصرف لي إلى رؤية غير ، ولا ألوي بنفع ولا ضرر .

ولكن الاستسلام يعطي إثارة مراد الله على مراد المريد ؛ ليدخل في غمار العبيد ، ويشهد القرب في القريب والبعيد ، والبعيد في البعيد والقريب ، فيكون حائراً بين هذه الزوايا ، ومنتظراً لرجوعه إلى خالص شهود محبوبه ، وصافي شراب ينبوعه ، ولي في ذلك :

كفّ الضراعة مُدَّت نحو سيدها يدخلني الله مدخل صدق في الطلب
وذاك أن يشهد السالك لقوّته وحوله في الترقّي في سما القرب
ومخرج الصدق في الرجعى لعالمه مؤيداً بجنود غير منقلب
فإذا عاد إلى الأكوان لله مستسلماً ، ولحكمه محتكماً . . حق
على الله أن ينصره وينصر به ؛ كما قال :

﴿ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ : يَنْصُرُنِي وَيَنْصُرُ بِي ، وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ ،
يَنْصُرُنِي عَلَى شُحُودِ نَفْسِي ، وَيُفْنِنِي عَنْ دَائِرَةِ حِسِّي

فالمطالب حقيق بنيل المطلوب ، وحصول المرغوب ، والتفضل بالموهوب ، فالجعل : هو العطاء المخصوص ، والامتنان على طوائف الخصوص ، بعطاء غير منقوص ؛ أي : اختصني بذلك .
والسلطان : هو الأمر الغالب الذي يغلب به كل غالب ، ويتدارك به كل فائت من المطالب ، فيكون به منصوراً نصراً عزيزاً مؤزراً ، مجموع سرّ الخطاب ، وفتح أم الكتاب ، تنصرتني على شاهد نفسي ، وتقهر به دائرة الحس المانعة عن التحقيق باستكمال مقام الفناء في الله .

وانصرني في إقبالي والأخذ في طريق بدايتي ؛ ليتم لي مقام إرادتي ،
وتنقطع عني عوائقي في طريقي ، إلى نيل بغيتي ومنتهى رغبتى .
وانصرني في رجوعي إلى الأكوان ، أهل صدق الرغبة من الإخوان ؛
لأكون سبباً له في استخراج كيمياء سعادته ، وعوناً له في طريق إرادته ،
بما ألبستني من حلل القبول ؛ ليحصل لمن اقتدى بي كل مأمول .
فالنصرة له أولاً في حال سلوكه وإرادته ، والنصرة به في حال رجوعه
إلى الأكوان بعد استكمال مقام نهايته ؛ وهو السفر الثاني .
ولا تنصر عليّ باستيلاء النفس عليّ ، وتحكّم الهوى فيّ ، وهذا غاية
الإضلال والبعد .

وقد جمع في دعائه بين جلب النفع ودفع المحذور ، ودفع المحذور
أجدر بالدعاء ، وكمال الدعاء : أن يجمع الأمرين ؛ لأنه يسأل كريماً لا
تبرمه كثرة الحاجات ، ولا تتخطاه إلى غيره الآمال في جلب المصالح
ودفع المهمات ، والفناء عن دائرة الحس هي نهاية الفناء في المقامات ،
وثالث مقام في الفناءات ، ولي في ذلك :

اجعل لي النصر في مبدا البدايات	ليحصل الوصول إلى أعلى النهايات
وفي رجوعي إلى الأكوان فانصرني	وكل طالب من أهل البدايات
ولا تسلط عليّ مَنْ كُنْتُ أحذره	من سالف أيامي أني في مهمات
ودائرة حسبي أخرجها وكن عوضي	عنها فهذا الذي أقصى إراداتي



[ومِمَّا كَتَبَهُ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ]

ثم لما أنهى الكلام على ذلك . . أخذ يتكلم في فضل الشكر ، وجعل الكتابة ختماً كغيره من المصنفين ؛ لأنه به تمام مقامات الواصلين إلى مقامات المقرّبين ، لذلك قال رضي الله عنه :

إِنْ كَانَتْ عَيْنُ الْقَلْبِ تَنْظُرُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ فِي مَنَّتِهِ . . فَالشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي
أَنَّ لَا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ

فالأمر الآن انتهى إلى غاية المأمول ونهاية المحصول ، فإذا عرفت حق هذه النعم الجسم والممن التّوأم . . فلا بد من الشكر على ذلك ؛ ليستمر الدوام والزيادة من العطايا العظام .

والشكر : عملٌ من أعمال الإنسان ، ولكن له شاهدان ؛ شاهد القلب واللسان وسائر الأركان ، وعين القلب هي البصيرة ، والبصيرة مستغرقة في شهود وحدانية الحق ، غائبة عن الثّان ، واللسان ظاهره من عالم ظاهر الإنسان .

وإذا وصلت نعمة على يد إنسان . . فعين القلب لا نظّر لها ولا ملائكة ولا إنس ولا جان ، فتشكر الواحد المنان ، فهذا حق الحقيقة من الإنسان ، ألا يشهد معه في منته ثان .

ولسان الشريعة الظاهرة في مظهر العيان ، يقتضي أن تشكر من جعله الله طريقاً في وصول الإحسان ، سواء كانت تلك دينية أو دنيوية ؛

لأن من لا يشكر القليل .. لا يشكر الكثير ، و« من لم يشكر الناس ..
لم يشكر الله »^(١) .

وشكر الله : هو الثناء عليه بما هو أهله ، وصرف ما أنعم الله به عليك
فيما أمرك به ، وشكر الناس : هو الدعاء لهم بخير على حسن صنعهم ؛
كما جعلهم أهلاً لذلك وأمرَكَ ، فيكون شكركَ لهم امتثالاً له من جملة
شكره ؛ لأنه هو الأمر بذلك ، مع أن عين قلبك لم يزايلها شهود انفراده
في مثته ؛ فهذا مقام العارفين الموفين بحق المقامين على تمامه ،
والواصلين في الشكر إلى ذروة سنامه ؛ وهو إيفاء الاسم الشكور حقه
والتخلُّق به ، كما أنك مأمور بذلك ، ومطالب بما هنالك ، ولي في ذلك :
إن كان بالقلب تنظرُ صرف مثته والكل معدُّم لا عين ولا أثر
فالشرع يقضي بأن العبد يشكر من [قد] ساقه الله بالإسدا من البشر
والناس فيما يأتيهم من النعم على أقسام ثلاثة ؛ كما قال المؤلف
رضي الله عنه :

وَإِنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ فِي غَفْلَتِهِ ، قَوِيَتْ
دَائِرَةُ حِسِّهِ ، وَأُنْظِمَتْ حَضْرَةُ قُدْسِهِ ، فَنَظَرَ الْإِحْسَانَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ،
وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ إِمَّا أَعْتَقَاداً .. فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ ، وَإِمَّا
إِسْنَاداً .. فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ

هذا تقسيم في مقام الناس في شهود النعمة الواردة ، وهم أحد طرفين

(١) رواه الترمذي (١٩٥٥) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

قاصيين ، ولكن أحد الطرفين محمود ؛ لأنه قاصرٌ عن رتبة الكمال ،
وأحد الطرفين مذمومٌ في غاية البعد والضلال ؛ وهم المذكورون ههنا
حيث قال : (إما غافل) والغفلة أقبح مقامات الإنسان ، وأحط مراتب
الثقلين ؛ لأن الله جعل رتبة الغافلين أحط من الأنعام السوام .

وأعظم أحوال الغفلة : الانهماك ؛ وهو التوغل في دركات البعد من
غير مبالاة ، والغفلة قوتها بحسب قوة دائرة الحس ؛ لذلك قال : (قويت
دائرة) لأنها كلما استقوت دائرة الحس . . قويت الدواعي الشهوانية ،
وتعشقت إلى الطبائع الحيوانية ، فتمكّنت شجرة الزقوم ، وكنف
ظلها اليعموم ، وكلما كانت أقوى وأرسخت . . كانت حضرة قدسه
إلى الانطماس والغيبة أقرب .

وعلامه ذلك : ظهور الطمع في المخلوقين ، والذلة للعبيد
المسترزقين ؛ لأن انطماس حضرة القدس وقوة دائرة الحس يقتضي رؤية
الأغيار ، وظهور الآثار ، والحجب عن شهود القاهر الجبار .

وثمرة الحجاب : هو الشرك ؛ إما أن يشهد ما يصل إليه على أيدي
الخلق اعتقاداً . . فهذا كفر ؛ كما شهد بذلك الحديث : « أتدرون ماذا
قال ربكم ؟ قال : أصبح من عبادي مؤمنٌ بي كافر بالكوكب ، ومنهم
كافر بي مؤمن بالكوكب ؛ فأما مَنْ قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته . .
فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما مَنْ قال : مُطرنا بنوء كذا . . فذاك
كافر بي مؤمن بالكوكب . . » الحديث بطوله ^(١) .

وإما إسناداً . . فهو شرك خفي ؛ كما عليه طائفة الفلاسفة - قبح الله
رأيهم - وهذا جارٍ في سائر العادات والمعتقدات ؛ حتى في المطعومات

(١) رواه البخاري (٨٤٦) ، ومسلم (٧١) عن سيدنا زيد الجهني رضي الله عنه .

والمشروبات والملبوسات وسائر المحسوسات ، فمن أضاف شيئاً إلى شيء دون الله ، أو بشيء غير الله ، أو في شيء . . فقد سلك أوعر الطرقات ، وارتكب عزيمة من القبائح المفطعات .

بل الأمر عند ذوي البصائر الصحيحة عن غشاوة الضلال : أن القرآن في الأمور هو المحكوم به ، المعروف في العبارة بالعند ؛ أن الله يخلق هذا عند هذا بجاري عادته ، وعلى مقتضى إرادته ؛ فمن شهد نعمة الله من غيره . . فلا شك أنه كفر نعمته ، فاستوجب وبيل نقمته ، فصرف ما كان لله من العبودية للمخلوقين ، ونسي رب العالمين وإله الأولين والآخرين ، فنعوذ بالله من طمس البصيرة ، وعمى السريرة ، ولي في ذلك : فالغافلون هم الجهال إذ جعلوا لله نداء معاذ الله حاشاه من يشهد الخلق دون الله حاصله شركٌ فظيغُ فنار الله مأواه



وأما القسم الثاني . . فهو الطرف المصطلم بالحقيقة ، ولم يشهد الخليفة ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

وَصَاحِبُ حَقِيقَةٍ غَابَ عَنِ الْخَلْقِ ، بِشُهُودِ الْمَلِكِ الْحَقِّ ، وَفَنِيَ عَنِ الْأَسْبَابِ ، بِشُهُودِ مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ ؛ فَهَذَا عَبْدٌ مُوَاجَهُ بِالْحَقِيقَةِ ، ظَاهِرٌ عَلَيْهِ سَنَاهَا ، سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ ، قَدْ أَسْتَوَلَى عَلَى مَدَاهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ غَرِيقُ الْأَنْوَارِ ، وَمَطْمُوسُ الْأَثَارِ ، قَدْ غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَى صَحْوِهِ ، وَجَمَعَهُ عَلَى فَرْقِهِ ، وَفَنَاؤُهُ عَلَى بَقَائِهِ ، وَغَيْبَتُهُ عَلَى حُضُورِهِ

فصاحب الحقيقة : هو الفاني بها عن كل مشهود سواها ، والحقيقة :

هي إقامة الله لعبده ، وتأهيله لشهود كمال ذاته العلية ، وصفاته السنية ،
وتجلياته الأزلية ، فلا ظهور هنالك للأغيار ، ولا بيان للآثار ، ويسمى
هذا : المشهد الحق ؛ وذلك أن الباطل لا ظهور له معه ، والملك هو
القاهر ؛ لقهره لمن سواه .

ومن أقيم في هذا المقام . . يسمى فانياً ، وحالته الفناء عن الأسباب ؛
لأنه شهد مسببها ، وكل الخلق وأفعالهم أسباب لمسبب ، فلا جرم أن
مَن أشهده كماله ، ومنحه قربه ووصاله . . أن يغيب عنها ؛ كما هو
مشهود فيمَن استغرقه مُهمٌّ من الأمور الحسية يغيب بالاهتمام به عن
الأشياء .

(فهذا عبدٌ مواجهٌ بالحقيقة) من الله ، مخطوب لحضرته ، مطموس
تحت أنوار عظمته ، (ظاهر عليه سناها) مشرق عليه ضياها ، فغاب بها
عمَّن سواها ، (سالك) لطريق الحق ، تارك لما وراءه ، (قد استولى)
أي : وصل وحصل (على مداها) أي : غايتها ومنتهاى حضور قدسها ،
والكون تحت ظل أنسها ؛ فهو الذي تولى الظل (غير أنه غريق الأنوار)
مقهور بتجلي الاسم القهار للأغيار ، (ومطموس الآثار) ألقى في تيار
بحار الأسرار ، لا يدري ليلاً من نهار .

(قد غلب سكره) بخمرة التجلي العقار (على صحوه) وهو الإفاقة
بالله ، وإثبات الأشياء به ، وإعطاء وجود الحق فيها حقه ، و (جمعه)
بالله الذي لا يعطي صاحبه تمييزاً ولا تقريراً ؛ لغلبة تجلي وصفه العزيز ،
(على فرقه) المطلوب منه ؛ وهو الفرق الشرعي الذي يعطي الحقوق
حقها ، ويوفي المقامات مستحقها ، (وفناؤه) بالله عن الأسباب (على
بقائه) بمسببها ، (وغيبته على حضوره) .

ومقام البقاء والحضور هو الذي يتم به السرور ، ويتوالى به الحبور ،
ويتنعم الناظر بالمنظور ، وتنشرح به الصدور ، قال الله جل وعلا في
الامتنان على نبيه بذلك : ﴿ اَللّٰهُ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ، وهنا ترفع الستور ،
وتتجلى البدور الكامنة تحت الخدور ؛ فكل صاحب حقيقة غاب فيه به
عن كل مشهود في الكونين . . . إلا هو قد لاح ظاهر سناها فيه منه له ،
لكنه بعد لم يشهد خباياه .



وقسم ثالث ؛ وهم أهل الكمال الحاصلون على أعز منال ؛ وهو الذي
جمع الأمرين ، وأحكم المقامين ، ونظر بالعينين ؛ كما قال المؤلف
رضي الله عنه :

وَأَكْمَلُ مِنْهُ عَبْدٌ شَرِبَ فَأَزْدَادَ صَحْوًا ، وَغَابَ فَأَزْدَادَ حُضُورًا ؛ فَلَا جَمْعُهُ
يَحْجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ ، وَلَا فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ جَمْعِهِ ، وَلَا فَنَائُوهُ يَصْرِفُهُ عَنْ
بَقَائِهِ ، وَلَا بَقَائُوهُ يَصْرِفُهُ عَنْ فَنَائِهِ ، يُعْطِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ ، وَيُؤْتِي
كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ

هذا مقام أهل الكمال الواصلين إلى ذروة الوصال ، والحاكمين
على الأحوال ، ولم يشطحوا في المقال ، ولم يقصروا في الأفعال ، ولكن
يعطون كل ذي قسط من الأحكام الشرعية قسطه - أي : حكمه - لا ينقصهم
ما يتوالى على أسرارهم من سكر الشهود ، ولا يوثقهم عن الوفاء بحق
المعبود ، ما يعتورهم من مخالفات الأحكام والحدود ؛ فلههم وجه في
الشهود ، ووجه في الوجود ، وهذا مقام الصديقية ، ولي في ذلك :

أهل الكمال لهم في القرب أحوال عوالي في مقام عز مرماه
يوفون كل مقام ما يكون له وهم في القرب في غايات عليه
وانظر إلى كلام أهل هذا المقام ، كيف وفوا فيه على التمام ؛ كما
قال مفسراً لما قدمه من الكلام على المقامين بكلام الصديق الأكبر في
ذلك ، حيث قال :

وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَّا
نَزَلَتْ بِرَأْيِهَا مِنْ الْإِفْكِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
يَا عَائِشَةُ ؛ أَشْكُرِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : وَاللَّهِ ؛
لَا أَشْكُرُ إِلَّا اللَّهَ ^(١) ، دَلَّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمَقَامِ الْأَكْمَلِ ؛
مَقَامِ الْبَقَاءِ الْمُقْتَضِي لِإثْبَاتِ الْأَثَارِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ : « لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ
النَّاسَ » ^(٢) ، فَكَانَتْ هِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُصْطَلِمَةً عَنْ شَاهِدِهَا ، غَائِبَةً
عَنِ الْأَثَارِ ، فَلَمْ تَشْهَدْ إِلَّا الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ

هذا شرح منه لما أسلفه من كلامه على المقامين ، وقد أوضح فيه
بغاية البيان ، حتى كاد أن يكون الأمر على العيان ؛ لشدة وقعه في
الأذهان ، وولوجه في الآذان ، وتمكن عبارته في الجنان ، فاستشهد في
ذلك بحالة الصديق ؛ لأنه البارز فيه شهادة القرآن ، إذ قال فيه سبحانه :

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) تقدم تخريجه قريباً (ص ٨٦٦)

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ :
قيل : أبو بكر .

فلما نزلت براءة عائشة التي هي من أجل المنن ، وأعظم النعم على
سائر الخلق ؛ فلمّا توجّه إليها الخطاب على لسان الأمين . . طالبها
أبوها بوفاء تلك والقيام بها ، فقال : (اشكري رسول الله صلى الله
عليه وسلم) يريد بالقول والفعال ، ولم يأمرها بشكرها ؛ لعلمه بما هي
عليه من كمال الاستعداد ، فلم يكن أبو بكر أراد أنها تشكر رسول الله
دون الله ، ولكن لما رأى ما فاض من مقتضيات الشكر لله . . أراد أن
توفي مقام الشرع حقه ؛ وهو شكر الخلق .

فقالت مترجمة عن حالها بمقالها : (والله - لأنه المشهود لديها -
لا أشكر إلا الله) لأن مظاهر الألوهية لم تترك فيها مساعاً لرؤية الثان .
والاصطلام في اصطلاح الطائفة : هو الحيرة والدهش ، وهذه الحالة
منها غير غالبية ، وإنما غالب أحوالها التمكين والصحو ، لكن لما
وافقها في حالة الاصطلام عن شهود الأعلام . . أفصحت بهذا الكلام ،
ولي في ذلك .

قد كان في ذلك الصديق أعلمها بما هو الشكر فاجتازت عن الغير
فلا اصطلام له حال يكون به غائب عن الكون لا يشهد له أثر
وعائشة هي زوجة النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين ، وهي من
أحب أزواجه صلى الله عليه وسلم إليه - وقيل : خديجة - فتجب براءتها
من الإفك ؛ فمن رماها بالإفك بعد نزول القرآن في شأن براءتها . . فهو
كافر ، كمنكر صحبة أبيها رضي الله عنه ؛ لثبوت ذلك كله بالكتاب
والسنة والإجماع ، ولا اعتداد بخروج طوائف الرافضة - قبّح الله رأيهم ،

وأخلى الأرض منهم - فذلك معلومٌ من الدين ضرورة ، فالحمد لله .
وقد وردت في فضل أبي بكر وابنته عائشة من الأحاديث ما لا يكاد
يمكن حصره للأحاد ، من كثرة الأعداد ، وَيَلِي أبا بكر في الفضل
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويليه عثمان بن عفان رضي الله عنه ،
ويليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عن الجميع ، ثم بقية
العشرة سواء في الفضل ، ثم بقية أهل بدر ، ثم أهل بيعة الحديبية ، ثم
بقية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .



[جواب المؤلف عن سؤال ورد إليه]

وَهَذَا سُؤَالٌ ، سَأَلَ الشَّيْخَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْضُ الرِّجَالِ الْمُتَعَرِّضِينَ
لِنَفَحَاتِ الْوَصَالِ ، فَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : « وَجِعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ^(١) هَلْ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ كَسَائِرِ مَا
أَخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْمَزَايَا وَالْفَضَائِلِ ، أَمْ لِغَيْرِهِ مِنْ تَابِعِينَ هَذِيهِ نَصِيبٌ مِنْهُ ؛
كَمَا لَهُمْ فِي أُمُورٍ مِنْ فَضَائِلِهِ ؟
فَأَجَابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَا هُوَ الصَّوَابُ ، مِنْ رَائِقِ الْجَوَابِ ، وَفَصِيحِ
الْخِطَابِ :

إِنَّ قُرَّةَ الْعَيْنِ بِالشُّهُودِ ، عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ بِالشُّهُودِ
فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ لَيْسَ مَعْرِفَةُ أَحَدٍ كَمَعْرِفَتِهِ
فَلَيْسَ قُرَّةَ عَيْنٍ كَقُرَّتِهِ
وَإِنَّمَا قُلْنَا : إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلَاتِهِ ؛ لِشُّهُودِهِ جَلَالَ مَشْهُودِهِ ، لِأَنَّهُ
قَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « فِي الصَّلَاةِ » وَلَمْ يَقُلْ : بِالصَّلَاةِ ؛ إِذْ هُوَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَا تَقَرُّ عَيْنُهُ بِغَيْرِ رَبِّهِ ، فَكَيْفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى
هَذَا الْمَقَامِ وَيَأْمُرُ بِهِ مَنْ سِوَاهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :
« أَعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » ، وَمُحَالٌ أَنْ تَرَاهُ وَتَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ !!
قَالَ لَهُ الْقَائِلُ ^(٢) : قَدْ تَكُونُ قُرَّةَ الْعَيْنِ بِالصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهَا فَضْلٌ

(١) رواه النسائي (٦١/٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) في « غيث المواهب » (٢١٢/٢) : (فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ) بَدَلُ : (قَالَ لَهُ الْقَائِلُ) .

مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَارِزَةٌ مِنْ مِنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ لَا يَفْرَحُ بِهَا ؟
وَكَيْفَ لَا تَكُونُ قُرَّةَ الْعَيْنِ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ۱۹

فَاعْلَمْ : أَنَّ الْآيَةَ قَدْ أَوْثَقَتْ إِلَى الْجَوَابِ ، لِمَنْ تَدَبَّرَ سِرَّ الْخِطَابِ ؛ إِذْ
قَالَ : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ، وَمَا قَالَ : فَبِذَلِكَ فَافْرَحْ ، يَا مُحَمَّدٌ ؛ قُلْ لَهُمْ :
لِيَفْرَحُوا بِالْإِحْسَانِ وَالْتَفَضُّلِ ، وَلِيَكُنْ فَرَحُكَ أَنْتَ بِالْمُتَفَضِّلِ
كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قُلِ اللَّهُ تَرَدَّدَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

هذا سؤال جامع ، وجوابه مدرج فيه ؛ وهو بأن يبسط عليه القول ،
كيف وقد جمع فيه رأس العبادات ، وكعبة القربات ، وأول المفترضات ،
وعمدة الديانات ؟! سيما صلاة أفضل البريات ، التي احتوت غاية
الكمالات ، وأرفع الدرجات ، وعدة الحسنات ، التي حظي فيها بما
قَرَّتْ به العيون ، من كشف السِّرِّ المصون ، والكنز المخزون ، تحت
تجليات الشُّوْنِ ، والشهود التام ، والمقام السام ، الذي يتقاصر عن نيله
أكابر المرسلين ، وجهابذة العلماء والصديقين .

فكل مصلٍّ له قرّة عين فيها ، ولكن قرّة العين تتفاوت بحسب
معرفة المعبود ، واضمحلال أعيان الوجود ، للتجلي والشهود ؛ فالرسول
صلى الله عليه وسلم ليس معرفة كمعرفته ، ولا نال مقربٌ كقربه ، ولا
حظي واصلٌ بمثل وصله ، فلم يكن لأحد قرّة عين كقُرَّتِهِ ؛ فإشارته
بقوله : (فيها) دالة على أنه قَرَّتْ عينه بمشاهدة الحبيب من قريب من
غير حجاب ؛ لأن العبد إذا قام إلى الصلاة . . تجلّى الله برحمته له في
قبلته ، وقد أشار إلى هذا في بعض الأحاديث : « أنه أقرب إليه من

مصلاه في سجوده»^(١) ، وقال أيضاً : « لو يعلم المصلي من يناجي . .
 ما التفت »^(٢) ، وهو صلى الله عليه وسلم حظي برتبة الشهود الحقي .
 وأما العلم . . فلغيره ، ورتبة العلم دون رتبة الشهود ، فالشهود هو
 العلم ، وزاد برتبة الكشف بالعيان ، فوصف سبحانه بالشهود حيث
 قال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فهذا هو عين مشهد الرسول
 بعينه صلى الله عليه وسلم ، شهد هويته ظهور ألوهيته ، فهو الشاهد
 والمشهود والشهود ، ﴿ وَالْمَلَكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ أيضاً ، شهدوا بما
 شهد به لنفسه .

فالحاصل من ذلك : أنه لم يشهده حق شهوده سواه ، ولا عرفه حق
 معرفته إلا إياه ، فالمعرفة : هو ما يعرفه العبد من نعوت سيده ومولاه ،
 ولا يعرف إلا بقدر ما أشهد سنا تجليّه ، وظهور صفاته وعميم أياديه .
 وهو صلى الله عليه وسلم لا تقر عينه بغير ربه ؛ لأنه عرفه ، ومن
 عرفه . . لم يسكن إلى سواه ، ولا يقر بغيره ، فتبين من هذا : أن لكل
 في الصلاة قرّة عين بحسب ما أشهده من تجلي ذاته ، وظهور أسمائه
 وصفاته ، فكيف تكون له قرّة عين في الصلاة بغير ربه وقد دلّ على أن قرّة
 العين لا تكون إلا به بأمره صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « اعبد الله
 كأنك تراه »^(٣) ، ومحال أن تراه وترى معه سواه ، فدل على أن كمال
 العبادة بشهوده ، ولا تشهده وأنت شاهد لسواه ؛ لاستحالة الجمع بين
 الوجود والعدم ، والحدوث والقدم ، والجواز والوجوب ، والحق والباطل ،

(١) رواه مسلم (٤٨٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن حبان في « المجروحين » (١٦١/٢) مرفوعاً عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

والنور والظلم ؛ لذلك قال المؤلف : (محال أن تراه وترى معه سواه) .

فهذا جوابه عن معنى الحديث على منهج المقرّبين ، وطريقة العارفين ، ومشهد الصّديقين .

فسأل السائل ثانياً عن حالة الأبرار وعموم المؤمنين بقوله : (قد تكون قرة العين بالصلاة ؛ لأنها فضل من الله تعالى وبارزة من منّة الله عز وجل ، فكيف لا يفرح بها ، وكيف لا تكون قسرة العين بها ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (١٢) وصدق فيما قال في السؤال ؛ فهذا لرجال ، وذاك لرجال !!

فقال له الشيخ مجيباً عن سؤاله ومبيناً لمقاله : (واعلم - لأن العلم في مثل هذا المقام هو الذي يحسن فيه الكلام ؛ لأنه مقام السائل ، وغناء الفقير العائل - أن الآية الذي فهمته منها قد أومأت بلطيف سرها إلى الجواب) .

وهذا هو حكم الكلام الجامع المعجز المنزّه عن الحدوث ؛ أنه يفهم لكل قوم على قدر مقامهم ، ويفصح لهم عن مجمل كلامهم ، ولكن أسرارهم لا تلوح إلا لمن تدبّره ، وعرف ظاهره ومضمّره ، وحقق معانيه وفسّره ، والسر وراء ذلك كله لا نهاية لتجليات أسرارهم ينتهي إليها في الدار الآخرة ، فضلاً عن توقف على كليات أسرارهم ، أو يشاهد مشرقات أنوارهم في هذه الدار .

ففهم في الآية السائل الفرح بالفضل ، وفهم فيها المسؤول - رحمه الله [- الفرح بالمُفضل ؛ كما هو شأن من وصل إلى مقامه ، وحصل على غاية مرامه ، وتجلّى له بدر التجلّي في تمامه ؛ أن يغيب برؤيته عن إنعامه ، وقرة العين ما يجده فيها من عظيم اللذة والروح والسرور ، كيف

لا وفيها مناجاة الحبيب من قريب ؛ لقوله سبحانه : ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ؟ !
 وقرة العين فيها لا تكون وفي القلب المحادثات الكونية ، والخطرات
 الهوائية ، والشهوات الحيوانية ، والحظوظ النفسانية ، والدواعي الشيطانية ،
 والكثائف الأرضية الطبيعية ، بل لمن فني عن نفسه بالكلية ، فتضرب
 بين هذه الحجب سرادق التولي الخاص ، وتغشاه أنوار الإخلاص ،
 ويستريح عن مدافعة الأعداء ، فيكون لطيفة من لطائفه : مشهد خاص
 في التكبير ؛ بالتسليم للأمر ، والانقياد للحكم ، وفي القراءة والقيام ؛
 بالتخلق والمناجاة والتذلل ، ويذل ويخضع ويخشع ، والترغيب وغير
 ذلك مما تفتح به القلوب ، وتكاشف به الأسرار من الأنوار ، فكيف لا
 تكون قرة العين فيها بهذا النعيم والروح والسرور ، والإقبال والحبور ؟ !
 وأما إذا كان القلب مشحوناً بالوساوس الشيطانية ، والشهوات
 الحيوانية ، والأسباب الدنيوية .. فكيف تنكشف له هذه المواهب
 والمنوح ، أو يواجه بتلك المنن والفتوح ؟ !

فإذا رفع الحجاب ، ودنا الحبيب من الأحباب .. توالى الفرح به
 والسرور ، فيجوز ألا يفرح بغيره ، ويقال له بلسان الحال في ذلك المقام :
 ﴿ قُلِ اللَّهُ تَرَدَّاهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، ولي في ذلك :

فقرة العين بالمحبوب موضعها	في العبادات حسب الطالب النظرا
كما روي عن عفيف الدين مغربها	كما يرى الله فاسمع ذا وكن حذرا
عن أن تصور في الأذهان له مثلا	ولا شبيها ولا ندأ ولا نظرا
فحضرة القرب أعلاها وأقربها	في الصلاة روى ذا السادة الكبرا



[الناس ثلاثة أقسام في ورود المنن]

ولما كان الفرح بالحبيب مطلوباً من المحب . ذكر المؤلف
بإثر ذلك الفرح وحده ، فقال في بعض ما كتب به لبعض خواص
الإخوان :

النَّاسُ فِي وُرُودِ الْمِنَنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :
فَرِحَ بِالْمِنَنِ لَا مِنْ حَيْثُ مُهْدِيهَا وَمُنْشِيهَا ، وَلَكِنْ بِوُجُودِ مُتَعَتِهِ فِيهَا ؛
فَهَذَا مِنَ الْغَافِلِينَ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾
وَفَرِحَ بِالْمِنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مِنْهُ مِمَّنْ أَرْسَلَهَا ، وَنِعْمَةٌ مِمَّنْ أَوْصَلَهَا ،
يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾
وَفَرِحَ بِاللَّهِ تَعَالَى مَا شَغَلَهُ مِنَ الْمِنَنِ ظَاهِرٌ مُتَعَتِهَا ، وَلَا بَاطِنٌ مِنْتِهَا ، بَلْ
شَغَلَهُ النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَالْجَمْعُ عَلَيْهِ فَلَا يَشْهَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، يَصْدُقُ
عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ اللَّهُ نَزَّلَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

هذا تقسيمٌ مناسبٌ للتقسيم ، إلا أن هذا بالفرح بالنعمة من حيث
هي نعمة ، وفرح بها من حيث هي فضل من سيده ، وفرح به دون ما
سواه ، واكتفاء به دون ما عداه .

والفرح ورد في القرآن ما هو منهى محض ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَا تَفْرَحْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ ، ونحو قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا
أُوتُوا ﴾ ، ولكن هذا بالفرح بالأعراض الفانية ، والزخارف الملهية ،
المشغلة عن الله ، الحاجة عنه ، الصادة عن عبادته ؛ وهي النعم
الدنياوية ، والحفظ النفسانية .

وفرح مندوب إليه ؛ بالفضل الصادر من المُفْضِل الجواد ، من حيث
إنه منه فضلاً وذكراً وعناية بشأنه ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ
وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ؛ لأنه صادر من تفضُّلنا وتطوُّلنا ، فالفضل ما
ظهر من ملائمت النعم ، والرحمة ما أشهده إياه من كونها منه رحمة
وعناية وقياماً بشأنه ، والله أعلم .

وأما القسم الثالث - وهم أهل الكمال البالغون نهاياته ، والواصلون
إلى أبعد غاياته ؛ من الأنبياء وسادات الأبدال وأكابر الأولياء . . . فإنهم
قد غابوا عن الأكوان بالكلية ، وباينوا النفوس ، وشربوا لذيق الكؤوس ،
من تجلِّي الملك القدوس ، وقسمته هذه حسب ما قدمه في أحوال
الناس عند ورود النعم عليهم .

فمن فرح بها ، محجوباً عن موردها ومنشئها . . فهي في حقه
استدراج وتمتع وحجة وحجاب ، فيغفل عن شكر موردها ، فيذاق
أليم عقاب كفرانها ، ونسيان المتفضِّل بها ، إلا أن يتدارك بالتوبة ،
ومن كان حاله الفرح بالنعمة دون الله . . فلا يخفى ما هو عليه من
دناءة الهمة ، وقبح الحال ، ورذالة الفعال ، فهو يسعى في غير منال ،
ويطلب ما عاقبته عليه وبال ، فحاله أقبح من الأنعام ؛ لأنه في غاية
البعد عن الشكر .

وقسم ثانٍ نال نصيباً من الشرف ، وحصل على حظ من القرب ،
ونصيب من الشكر ، ولكنه دون مرتبة القسم الثالث .

فالقسم الثاني : هم العاملون على نيل الجزاء ، والقائمون على التقليد
والاقتفاء على مناهج السلوك ، الذين لم يخرجوا بعد عن رؤية نفوسهم
أن منها ولها ، فهم مطالبون بإخلاص ما عملوا ، وتحقيق ما علموا ،
وشرفهم من حيث إنهم ذكروا المنعم بورود نعمته ، فهم على مقام من
الشكر ، غير أنهم لم ينالوا كل العناية ، فالشكر له مراتب ثلاث حسب
حالة أرباب المقام ؛ [فمنهم ^(١) الكامل والأكمل .

والفرح : هو الابتهاج بالمفروح به ، والسرور : هو الشكر نفسه ، إلا
أن الشكر يعم الباطن والظاهر ، والقول والفعل والخلق .

فأول مراتب الشكر وأقربها على العباد : هو ألا تعصيه بنعمته ،
وأوسطها : هو أن تصرف ما أنعم به عليك فيما ندبك إليه ، وأكمل
من هذا : هو أن تغيب عن النعمة بالمنعم ، فتكون به له ، لا بشيء ولا
لشيء دونه ؛ فهذا هو الشكور المعروف بين هذه الأصناف بلا تعريف ،
ولي في ذلك :

الناس في واردات الفضل والمنن	ثلاثة ولهذا القول كن فطن
فيفرحون بها من حيث هي نعم	موافقة كل إسكاف وكل دني
ومن يكن في مقام العلم يشهده	من حيث هو منه يفرح به ولا يكن
لكن يكن فرح الأحباب مطلبهم	ألا يروا غيره في السر والعلن

(١) في النسخ (فمن) بدل : (فمنهم) .

وَفِي أَخْبَارِ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (قُلْ لِلصِّدِّيقِينَ مِنْ عِبَادِي : بِي فَأَفْرَحُوا ،
وَبِذِكْرِي فَتَنَعَّمُوا)^(١)

فلا يكون صديقاً وله إلى الأغيار نظر وإقبال ، ولا تتحقق المقامات
إلا بشواهد الأحوال والعلامات ؛ فعند ورود الأمر الواحد يتحقق المقرُّ
من الجاحد ، والمدير من القاصد ، وتتمايز بالأفعال المقاصد ، فيظهر في
مقامات الامتحان الخرز من المرجان ، والفرحون بالله : هم أهل الروح
والطرب ، ويحق لهم حيث نالوا غاية المراد والأرب ، ولي في ذلك :
ومن نظر وجه من يهوى يحقُّ له أن يطرب الكون من ألحان مغناه
ويعتريه عظيم الوجد كيف به لو أسفرت من حجاب البعد عيناه
دار الوجود ودار الكأس واطربا مما يعاين من أنوار علياه
كادت على ذاك أرواح تطير أسى إذا حدا حادي الوجدنا بمغناه
ولما كان الفرح بالله من أجلِّ المراتب وأقصى المطالب . طلب
المؤلف رحمه الله الوصول إلى ذلك ، والتحلي بما هنالك ، فقال :

وَاللَّهُ يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكَ بِهِ ، وَبِالرِّضَا مِنْهُ ، وَأَلَّا يَجْعَلَنَا مِنَ الْغَافِلِينَ ،
وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسْلِكَ الْمُتَّقِينَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ

فالله يجعلنا كذلك وأحبابنا في الدين ، ومن أحاطت عليه شفقة
قلوبنا ، ومن له علينا حق من المشايخ في الدين ، والأولاد والوالدين ،

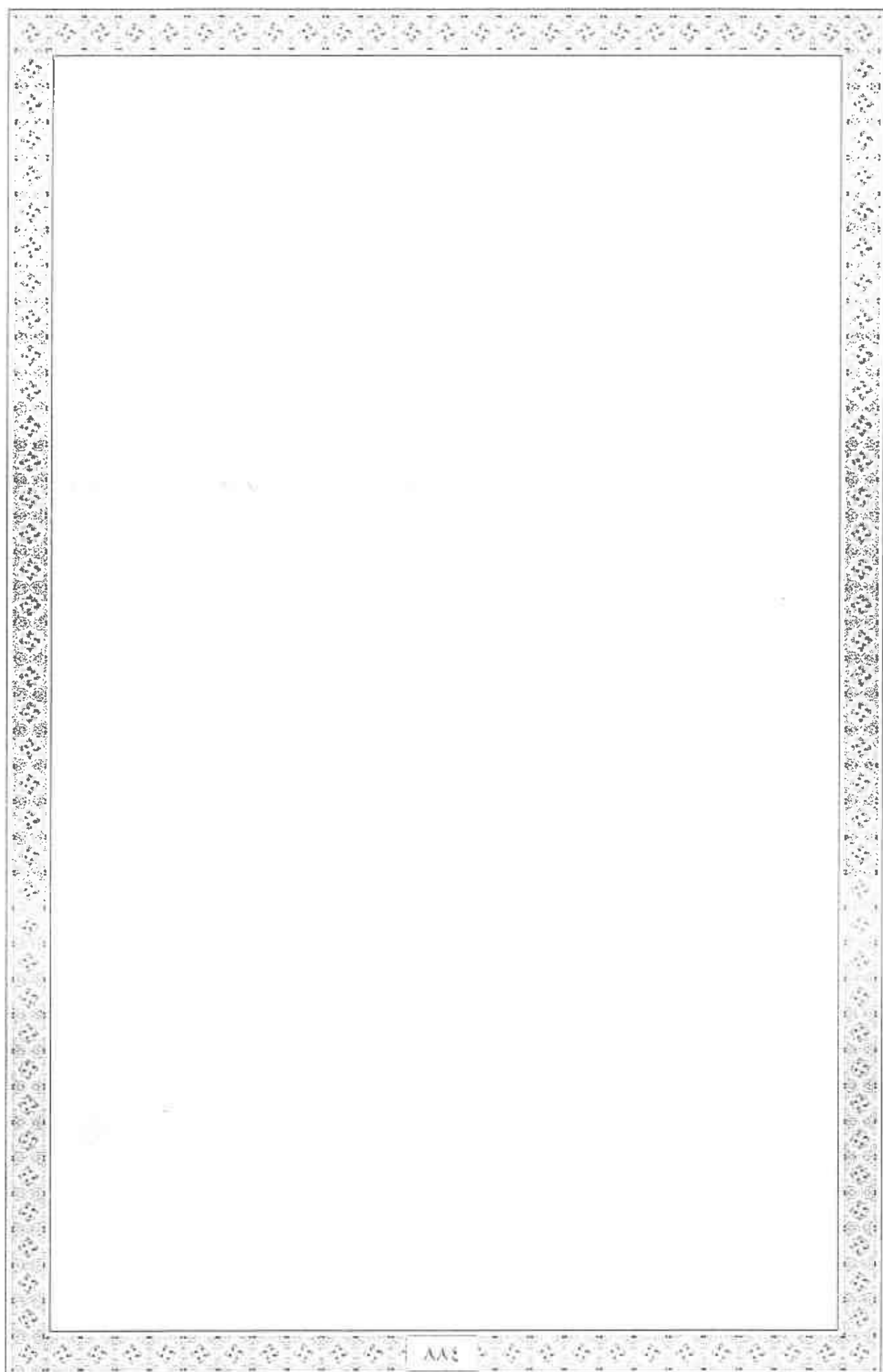
(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٧/٨) عن محمد بن النصر أنه قرأه في بعض الكتب .

ومن أحبنا في الله أو أحببناه ، ووالانا في الله وواليناه .

وَأَلَّا يَجْعَلَنَا مِنَ الْغَافِلِينَ الْفَرَحِينَ بِالْأَغْيَارِ ، الْمَطْمُوسِ عَلَى أَسْرَارِهِمْ
بِظُلْمِ الْآثَارِ ، الَّذِينَ سَلَكَوا طَرِيقَ الْكُفْرَانِ ، وَانْقَادُوا بِأُزْمَةِ الْأَهْوَاءِ لِدَاعِي
الشَّيْطَانِ ، وَنَسُوا عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ ، وَانْحَجَبُوا بِظَوَاهِرِ الْأَكْوَانِ .

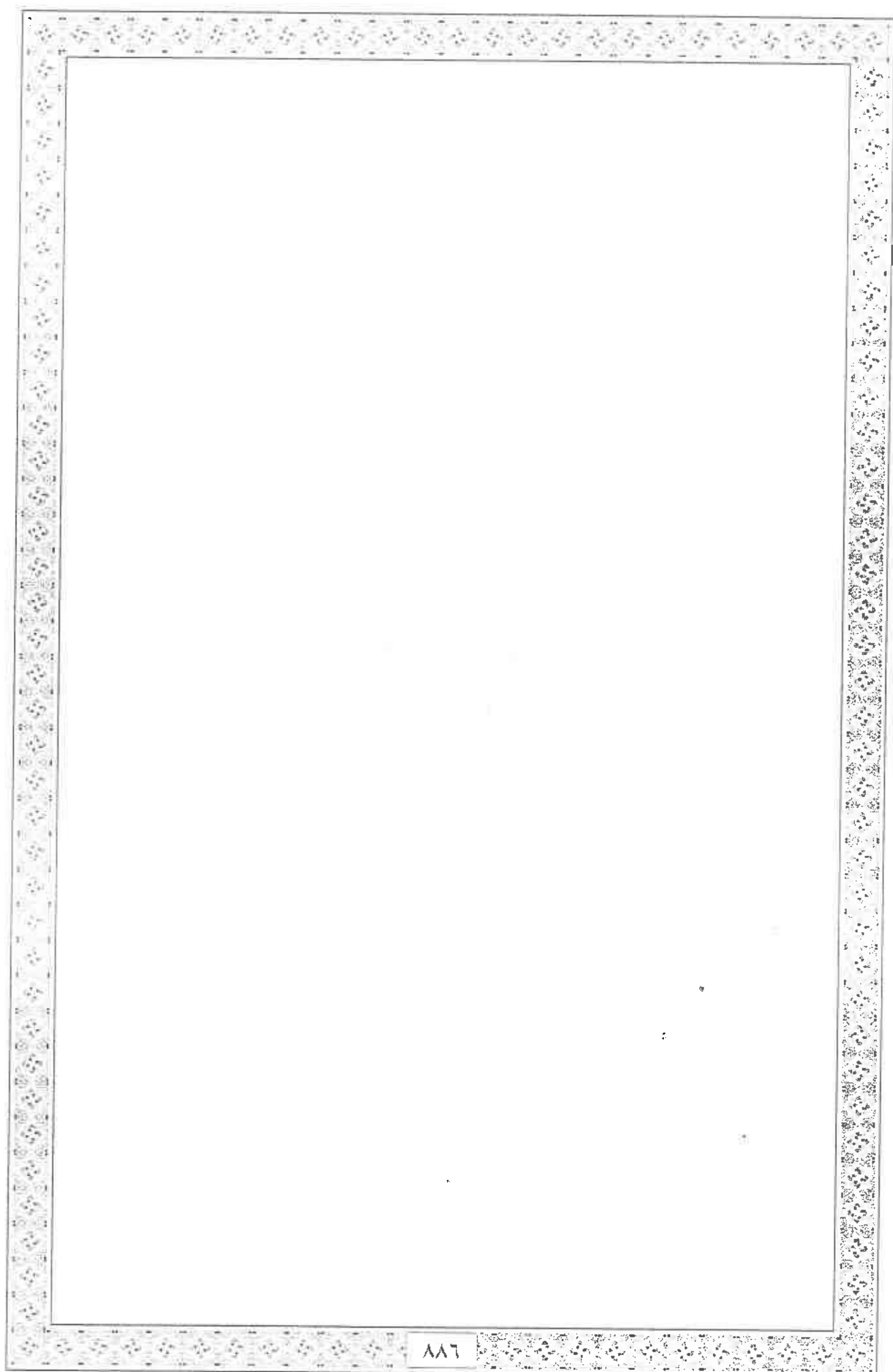
وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسَالِكَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَكَانُوا نَصَبَ
نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ ، بِمَنْهِ الْفَائِضِ وَكَرَمِهِ الْعَمِيمِ ، آمِينَ ، بَعْدَ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ
عَلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَسَيِّدِ أَصْفِيَائِهِ مُحَمَّدٍ الْأَمِينِ ، وَآلِهِ الْأَكْرَمِينَ ، وَصَحْبِهِ
الْمَكْرَمِينَ ، نَجُومِ الدِّينِ ، وَأَعْلَامِ الْيَقِينِ .





الْمُنَاجَاةُ الْإِلَهِيَّةُ

للإمام ابن عطاء الله السكندري
رحمه الله تعالى



المناجاة الإلهية

وهنا أخذ في المناجاة لما انتهى إلى مقام المصافاة ، وبه تمام الكتاب ، فقال رضي الله عنه :

إِلَهِي ؛ أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي ؟!
إِلَهِي ؛ أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي ؟!

لما كان اسم الألوهية له التكبر ، وتجلّى في سائر المظاهر الملكوتية والملكية والجبروتية ، الحسية والمعنوية ، الشهادية والغيبية ؛ وذلك لما اقتضت أعيان الوجود من التغاير والكثرة والاختلاف ، وهو مع وحدته إله بكل معنى ، ويعمُّ سائر الأسماء الجلالية والجمالية التي سائر الأكوان موجودون عن تأثيرها ، وظاهرون بمظهر منها ، فيكون بهذا الاعتبار لذوي الاستبصار الإله بمعنى المعبود بحق ، والمستغني بذاته ، المفتقر إليه ما سواه ، والموجود والمرجو والمخوف ، والمحبوب والمقصود والموصوف بكمامل الأوصاف ، والمعروف بمحاسن الأفعال ، وغير ذلك من سائر ما يظهر خساً ومعنى ؛ فالحق هو الإله ، وبمعنى الحق الظاهر وسائر الأسماء .

فلذلك كلما ظهر العبد في وصف من صفاته .. شهد حقيقة تلك الصفة ، فردّها لمن هي له حقيقة ، واتصف بما هو الأصل له دون إلهه . ولما تجلّى الحق له في شاهد سره بسر الغنى المطلق الديمومي ،

وأثر ذلك الوصف الإلهي ظاهر أثره على صفحات الوجود ، وبإد مظهره على كل معاين موجود ، بالقيام به في كل حركة وسكون . - ظهر - لا محالة - افتقار العالم بأجمعه علوه وسفله إلى إقامة القيوم ، الدائم به وله في سائر الأحوال والقوى .

وإذا كان الأمر كذلك . . فالعبودية أن تعرف وصفك وما هو نعتك ؛ ليمدك من فائض فضله ، لأن كل اسم يظهر أثره يقتضي حقاً من العبادة ، ولا يكون عبادة حقيقة إلا ما كان صادراً عن معرفة المعبود وكماله ، ومعرفة العبد ونقصه واضطراره ، وذلته تحت قهر المعبود وجلاله .

واسم الألوهية من أخص ما يتوسل به المألوه ؛ لأنه لا يخفى ما في دعائه بهذا الاسم من الاعتراف لله بكمال ألوهيته ، وعظيم ربوبيته ، وما العبد عليه من الاتضاع في أرض افتقاره وتراب ذلته ، فقال : (إلهي) فشهوده للألوهية أولاً . . دليل كمال معرفته ؛ لأن لها الأصالة ، فاقضاء مقام العبودية لهذا الإله المعبود أن لا بد للعبد من إنّيّة ، فقال : (أنا الفقير) وذلك من أحسن آداب العبيد ؛ أنها لا تظهر إنّيّة إلا مقترنة بوصفها ، ومتدعة بنعتها ، والفقر له وصف في الذات والصفات والأفعال ، بل في نفس وجودها مفتقر إلى موجدّه أولاً ، وقائم في حال وجوده ، وممد له مواد صفاته ، ومجري له أسباب أفعاله ؛ فكان فقيراً لا محالة ، والسؤال بهذا الوصف أقرب للإجابة ، بل لا يُقرع باب الرب بمثل التملُّق إليه بهذا الحال .

وإذا علم ذلك - أي : أصالة الفقر له - . . علم أنه فقير لا يزايله افتقاره ، ولا يفارقه اضطراره في سائر أحواله ، وظهور الغنى على العبد بالأسباب الدنياوية والدرجات الأخراوية لا يزداد بها إلا افتقاراً إلى افتقاره ، فعلم

أن الفقر أبداً وصف للعبد ، وأن الغنى لله دائماً سرمداً .

فإذا كنتُ فقيراً في غناي . . فكيف لا أكون فقيراً في فقري إلى الأشياء في كل حينٍ وأوانٍ وزمانٍ ومكانٍ ؟!

فالغنى : هو أن تستغني عن الشيء المفتقر إليه ، والعبد لو كان مستغنياً عن الأشياء . . لا يكون استغناؤه عنها إلا أن يشهد من وجوده ما يكون مستغنياً به ، وذلك - لا محالة - يحتاج إلى كشف الغطاء عن قلبه ، وهو أعز سبباً ؛ لأنه لا يدرك بحيلة ولا اكتساب ، فكان الافتقار إليه أعظم ، فإذا كان فيما يرى أنه غنيٌّ فقيراً . . فكيف لا يكون فقيراً وهو أبداً محتاجٌ ومضطرٌّ إلى الأسباب ؟!

وكذلك العلم لله وصفاً وحقيقة ، وللعبد مجازاً وعطاء من جملة العطايا ، ومزية من جملة المزايا ، وهدية من سائر الهدايا ، فإذا كان كذلك . . علمت أن الأصالة فيك الجهل ، ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ .

فلولا مددك إياي فيما أعلم في كوني عالماً . . لم يثبت علمي معي ، ولولا حفظك له عليّ . . لم أكن حافظاً ، ولولا إجراؤك أسبابه لي . . لم أكن له متيقظاً ، فصح أنني جاهلٌ في علمي لو وهبت لي سائر العلوم ؛ لأنَّ نسبتها إليّ مجازية .

فالعالم حقيقة : من يعلم الأشياء وكيفياتها وهيئاتها في إجمالها وتفصيلها قبل إبراز صورها إلى عالم مظهريتها ، وليس ذلك إلا الله .

فأنا في حال توهمي أنني عالمٌ . . جاهلٌ ، فكيف لا أكون جاهلاً في جهلي بسائر الأشياء ؟! فلا أعلم مجاري الغذاء مني ، ولا تصاريف الأقدار فيَّ . .

كيف وقد وصف الله الإنسان بالجهل ؛ كما وصف نفسه بالعلم
فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فقال في وصفه أيضاً : ﴿ يَعْلَمُ ﴾
بالماضي ، يشير إلى قدم العلم له ، ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بالحال ، يشير
إلى أنكم لا تعلمون في حال وجودكم !؟

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ولكان هو الوصف كما وصف
نفسه بالعلم بالأشياء : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، فإذا كنتُ جاهلاً
في علمي .. فكيف لا أكون جهولاً في جهلي وأنا لا^(١) أعلم ماذا
يجري عليّ ؟! وكيف أنا في عالم تركيبي الذي هو مشهود لي ؟! فلقد
حقق الاعتراف ، وبيّن مقاصد الإنصاف ، وعرف ما للعبد من الأوصاف ،
فجزاه الله خيراً ، ولي في ذلك :

من كان في وصفه بالحظ مفتقراً فكيف لا وهو محتاج ومفتقراً
ومن يكن جاهلاً في علمه فعلى ما لا يكن جاهلاً في الجهل محتقراً

إِلَهِي ؛ إِنَّ اخْتِلَافَ تَذْيِيرِكَ ، وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ ، مَنَعَا عِبَادَكَ
الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَى عَطَاءٍ ، وَالْبَاسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ

فلما كان تجلّي أولاً عليه بصفة الغنى والعلم .. تلقاها بوصف الفقر
والجهل ؛ اللّذين هما اللاتقان به في هذا المقام ، فتجلّى له بوصف
إرادته وقدرته ، فأعطاها حقها ، فقال : (إلهي) لأنه تجلّى بوصف
الإرادة المتفرعة عن العلم ، ثم تجلّى له بوصف الاقتدار ، فقال في مقام

(١) في (أ ، د) : (كما) بدل : (لا) .

الاعتذار ، والتبهُل بلسان الاضطرار ، والتعلق به في مختلفات الأقدار ،
وواردات تعاقب الآثار في الأطوار : فهذا هو الذي أوجب لذوي البصائر
والأبصار ألا يسكنوا مع الأغيار ؛ من جنة أو نار .

فلما رأوا سرعة اقتداره ، واختلاف ظهور مشيئته في أقداره . لم
يسكنوا إلى ما يجدون من الأحوال ؛ لأنها - لا محالة - حائلة ، فكان
هذا الذي أقلق قلوب المحبين ، وكدّر صفو صفات المكاشفين ؛ خوف
تبديل ما هم عليه ، كما جرت بذلك الأحكام على أقوام أنزلوا بعد رفعة
المقام إلى مراتب العوام ، بل أقبح حالاً من الأنعام ، نعوذ بالله من سوء
ما سبقت به الأقدار ، وانبرمت به الأحكام ، وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما رأى سرعة تقلّب القلوب تحت أستار الغيوب . . يقول
في قَسَمه : « إي ومقلّب القلوب » ^(١) .

وكما أنها أورثت ألا يسألوا حالاً يكونون عليه من الأحوال السارة . .
كذلك أورثتهم حسن الظن بالله ، وعدم اليأس من روحه ، وتفريج ما
ينزل بهم من المهمات ، ومعضلات البليات ؛ لسرعة تقليب الأحوال ،
وسرعة حلول المقادير ، وهكذا تكون أحوال العارفين ؛ لا يسكنون مع
عطاء ، ولا يئسّون عند حلول بلاء .

ولي في ذلك :

إن اختلاف مقادير الإله على عباده لم تدع في الكون مأنوس
كذاك لم يك للبلوى مقاومة لذي الشدائد والضراء والبوس



ناداه ثالثاً بما هو المعهود من جميل فعله ، وما هو اللائق بكمال

(١) رواه البخاري (٦٦١٧) بنحوه عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

نعته في مقابلة ما العبد عليه من النقص في الأفعال ، وارتكاب ما يعتذر منه من الخلال ، فقال بلسان الاعتذار والانطراح والإقرار :

إِلَهِي ؛ مَنِّي مَا يَلِيْقُ بِلُؤْمِي ، وَمِنْكَ مَا يَلِيْقُ بِكَرَمِكَ

(إلهي) بمعنى الكريم المتطول ، والمَنَّان المتفضِّل (مَنِّي مَا يَلِيْقُ بِلُؤْمِي ، وَمِنْكَ مَا يَلِيْقُ بِكَرَمِكَ) فلؤمي يقتضي معاقبتي ومعاتبتي ، ومنك ما يليق بكرمك من العفو والتجاوز والصفح ؛ كما هو وصفك .

فشأن العبد إذا أراد الدعاء للكريم المُفْضِل : ألا يُقَدِّم بين يدي دعائه إلا الاعتذار ، بين يدي القادر الجبَّار ، ودوام التضرُّع والاستغفار ، من الذنوب والأوزار ، بين يدي العفو الغفار ؛ فإن الكبائر مع ذلك يرتجى غفرانها ، وتجلَّى عن القلوب ظلماتها ورانها ، ويشهد ما روي : « أن الله يفرح بتوبة عبده واعتذاره إليه »^(١) ، ويروى أيضاً : « أن العبد إذا أذنب الذنب وقال : يا رب . . فتحجب دعاءه الملائكة عن الله حياءً من الله أولاً وثانياً وثالثاً ، حتى يدعو رابعاً ، فيقول الله عز وجل : لبيك عبي ؛ إلى كم تحجبون دعاء عبي عني » أو كما قال^(٢) .

فهذا وما ورد في الكتاب والسنة مما يقتضي أن الله يحب من

(١) رواه مسلم (٢٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) روى البزار في « مسنده » (١٣٠/١٨) ، مرفوعاً من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها : « إذا قال العبد : يا رب يا رب أربعاً . . قال الله تبارك وتعالى : لبيك عبي ، سل تعطه » .

عبدہ الاعتذار إليه والرجوع بالتضرع والاستغفار له ، مما لا يكاد يدخل تحت الحصر والعِدِّ ، وهذا هو الحكمة - والله أعلم - في تقدير الذنب على المؤمن ؛ كما ورد : « لو لم يكن الذنب في بعض خيراً للمؤمن من العجب . . ما قُدِّر عليه »^(١) ، ولي في ذلك :

فكل ما كان من لؤم ومن زلل فلائق بي وشان الله غفرانُ
فالعفو أرجى لأن الله مُتَّصِفٌ به ولا حرج أن يعف رحمانُ



فاسمه العفوُّ ، إذا تجلَّى . . محاذلمات الآثار الحادثة والأوهام
الزائلة ؛ وهو من أخص تجليات الجمال ، فعند تجليه تظهر الصفات
الأزلية ، والتجليات اللطفية ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِلَهِي ؛ وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ، أَفَتَمْنَعُنِي
مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي ؟!

(إلهي) بمعنى اللطيف في عظمته ، والعطوف في سابق منته
(وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ، أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا
بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي ؟!) فوصفه لنفسه في أزله بكلامه القديم الدائم .
قوله عز من قائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، وقوله أيضاً : ﴿ اللَّهُ
لَطِيفٌ بَعْبَادِهِ ﴾ ، هذا قبل وجود الخلق وصفاتهم التي هي الضعف
والعجز ، وصفاته لا بد وأن تظهر آثارها ، وتتجلَّى أسرارها ، والخلق

(١) تقدم غير مرة ، وتخريجه في (ص ١٣٩) .

وصفاتهم محل ظهورها ، ومجلى نورها ، فكيف يمكن اتصافه بهذه الصفات ولا يظهر لهم محل ظهورها ، ومجلى كوامل بدورها ؛ دون العباد وصفاتهم ؟!

ومراد المصنف : الوصف الذي يقتضي ظهوره وجود ضعف العباد ؛ لمقاومة تجليات العدل ، وغلبات الحكم ، والناس من الوسائل والحيل ، وشقوق الشفاه وسيلان المقل ، على التفريط واقتراف الزلل ، وبيان مستتر العمل حين يتخلف عنك كل حبيب ، ويقلاك كل قريب ، وينساک كل حميم ونسيب ، فهناك يتحقق تجلي ظهورها ، وترتفع الحجب عن ستورها ، فيبدو للعباد ما لم يكن لهم في حساب ، ولا سطر في كتاب ، من توالي العطاء والثواب ، يكون منه السؤال ، وعليه الجواب ، فيعتذر الله سبحانه إلى عبده ؛ كما ورد .

وقولنا : (منه السؤال وعليه الجواب) هو الحق كما نطق به الكتاب ، قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبُ ﴾ ، فهذا قوله بنفسه لنفسه في كلامه العزيز ، فكذلك يكون جواب الأتباع على السنة المتبوعين ، والمدعوين على السنة الداعين ، ولي في ذلك :

وصفت نفسك باللطف العميم ولا موجود غيرك يا فرد بلا مثل
فكيف تمنع من قامت به حلل ضعف وعجز وأنت المفضل الأزل



فلما كان العبد قد يظهر أفعالا محمودة وخصالا شريفة اعترف المؤلف بقوله :

إِلَهِي ؛ إِنْ ظَهَرَتِ الْمَحَاسِنُ مِنِّي .. فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ
ظَهَرَتِ الْمَسَاوِي مِنِّي .. فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ

(إلهي) بمعنى المَنَّان المتفضِّل بصنوف الفضل والإحسان (إِنْ
ظَهَرَتِ المحاسنُ مِنِّي .. فبفضلكَ ولكَ المنَّةُ عليَّ ، وَإِنْ ظَهَرَتِ
المساوي مِنِّي .. فبعديكَ ولكَ الحجَّةُ عليَّ) هذا من أحسن ما يناجي
به الحبيب ، ويتضرَّع به العبد الأديب ؛ وهو الاعترافُ لله بما أولاه
من الإحسان ، وأفاضه عليه من النعم والامتنان ، وإقامته النفس مقام
الاعتذار ؛ لأن المحاسن المشار إليها في كلام المؤلف .. هو ما يظهر
على العبد من صنوف الطاعات ، وأفعال الموافقات .

وليس ذلك مقدوراً للعبد ، بل هذا فضلٌ أبرزه عليه من عين
مَنِّته ، وأفاضه لديه من سابغ رحمته ، وإلا .. فمن أنت حتى تقوم له
بحق العبودية وأنت متلطِّخٌ بقاذورات البشرية ، منغمسٌ في غمرات
الشهوات ؟! فأنى يكون منك عملٌ صالح ؛ إن لم تخلص من رؤية
الخلق وظهور النفس ؟! وهذا لا يصلح أن يقابل به ، أو يعرض بين أهل
حضرته ، وقد قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ .

فإذا حصل العبد على شيءٍ مما يصلح للعرض عليه من خالص عمل
أو حالة حميدة .. فإنما ذاك بارزٌ على العبد من عين مَنِّته ، لا مقدرة
للعبد على تخليصه وتزكيته .

وإن ظهرت المساوي ورذائل الأحوال وقبائح الأعمال .. فبعديك ،
ولكَ الحجَّةُ عليَّ ؛ لأن نسبة الأفعال الملوثة والأخلاق المشوَّومة إليَّ
نسبةٌ وإسناد ، وإلى عدلكَ خلقٌ وإيجاد ، وهذه حالة الأدباء ؛ يشهدون

المحاسن من الله ، لا نسبة لهم فيها ، ولا اقتدار لهم عليها ، ويشهدون
نسبة المساوي إليهم ، فيندمون عليها مع ما هم يشاهدونه من سبق
الإرادة بذلك ، وحكم الاقتدار فيما هنالك ، فهم معتذرون منها ظاهراً ،
يستسلمون للحكم باطناً ، ولي في ذلك :

فرؤية الفضل والإحسان نسبتها إلى الإله فلا يأتي بها آله
وما يكون من الأسوا فنسبتها إلى العباد وحكم الله أنشأه



وهذا مما يقتضي سرعة الإجابة والإسعاف والظفر بالمطلوب ؛ لأنه
جاء بوصفه ، واعترف له بنعمته عليه وفضله ، واعترف بتقصيره ، فلم
يكن التفات إلى غير فضله ، ومع ذلك هو مشاهد لتقديره وعدله ،
فجدير بنيل المطلوب .

فإذا كانت أسماؤه تقتضي ظهور آثارها . . أخذ في بيان تفاصيلها ،
وأسماء الجمال هي التي يحسن أن يتضرع بها ، ويبتهل إليه بمضمونها ؛
لأنها تضمنت للعباد دقائق اللطف والوداد ؛ لذلك قال :

إِلَهِي ؛ كَيْفَ تَكِلْنِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي ؟! وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي ؟!
أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الْحَفِيُّ بِي ؟!

(إلهي) بمعنى الوكيل الكافي الناصر الجفي ؛ وهو اللطيف (كيف
تكلني وقد توكلت لي ؟! وكيف أضام وأنت الناصر لي ؟! أم كيف
أخيب وأنت الحفي بي ؟!) كيف تكلني إلى نفسي وتهملني تائهاً
في ظلمات حسي ، وتحجبني عن مشاهدات أنسي ، وفسيح حضرات

قدسي ؛ وقد تسميت قبل بروزي بأنك الوكيل الحافظ الكفيل ؟!

فظهر اسمك الوكيل يقتضي توكلي في سائر أموري ، ولا تتركني موكولاً إلى عجزى وضعفى ، وعدم علمي بما هو الأصلح لي ، بل يقتضي تأثيره في أن تتوكل لي في جميع حركاتي وسكوني ، وظهوري وبطوني ، وسائر أموري ، حتى تصرفني بحسن اختيارك لي فيما هو المطلوب مني ، واللائق بمقام الشهود مني ، فتقيمني بك لا بي ، وتشهدي وجودك في الأكوان غائباً عني ، فانياً عن عالم كونيتي ، باقياً بك في ديمومية ملكك ، فأحيا حياة الأبد بقيومية الواحد الأحد .

وكيف أضام بقهر الأنام وغلبة الأحكام وجور الحكام وأنت الناصر لي ؟! لأنك صرت لي وكيلاً ؛ ويسائر أموري كفيلاً ، فلم يبق لي على سواك تعويل ، فمن كنت له ناصراً وكيلاً ، ولأعدائه مقاوماً . . فلم يظهر عليه المتظاهرون ، ولا يعبأ بعدد الجنود المتناصرين ، قال صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله لوطاً ؛ لقد أوى إلى الركن الشديد »^(١) ، عند قوله : ﴿ أَوْءَاوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

أم كيف أخيب من فضلك العظيم وكرمك العميم الذي نال^(٢) أهل الجحود والضلال وأنت الحفي اللطيف بي ؟! كما قلت : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ ، وقلت في سبوح رحمتك وتجليل منتك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فكيف تخيب آمالي من عطائك ؟! وكيف ترجع بخيبة من نصرتك وولائك ؟! أم كيف تعود آيسة من روح منتك ورجائك ؟! حاشا صفاتك العلية وتجلياتك الأزلية عن ذلك ، ولي في ذلك :

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في (أ ، ب) : (قال) بدل : (نال) .

أنت الوكيل وكل الكون مفتقر إليك يا كافي الدَّراتِ في الأزلِ
فلا تكلني إلى نفسي وأنت لها نعم الوكيل ونعم الناصر العدل
فلا يضام نزيل الله منتصراً ولا يخيب الذي بالله متصل



ولطف الله بعبده لم يتخلف عنه في سائر أحواله وإن كانت مؤلمة
له ؛ فهو أعلم بدقائق الألفاظ ، فلا يفارق العباد لطفه ، فما يحمله إلا
هو ، وإذا علمت أن لا وسيلة للعبد أرجى من اعترافه بوصفه بين يدي
سيده .. أخذ المؤلف رحمه الله في التوسل إلى الله فقال :

هَإِنَّا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ

والتوسَّلُ بالفقر شأن الأدباء ؛ إنهم لا يرون وسيلة منهم أرجى
ولا أنفع ولا أقرب من الاعتراف بذلِّ العبودية ، عند مواجهة تجليات
الربوبية ؛ فالإقرار بالافتقار بين يدي الغني الجبار .. صفة الأخيار .

والوسيلة : هي ما يقدها المتوسل بين يدي من يتوسل إليه ، إذا
كانت من خير الأعمال .. سُميت وسيلة ، وإذا كان من الوسائط .. سمي
شفيعاً ، وقد تسمى الوسيلة شفيعاً ، والشفيع وسيلة ، ولا مشاحة في
اللفظ إذا عُرِف المعنى .

فلا أرجى للعبد عند الله من الوسيلة مثل اعترافه له بصفات
الكمال ، ولنفسه بالذبول والاضمحلال ، والإفلاس عن سائر الأعمال ،
والغيبة عن الأفعال ، فلا يجد ما يتوسل به إلى مولاه إلا عدم حيله ،

وفقد علمه وعمله ، فيكون في حال قيامه في الأعمال غائباً عنها ،
وفاقداً لها ، مفتقراً إلى سيده الكريم ، وخالقه الرحيم ، ولي في ذلك :

توسلي بافتقاري للذي نزلت به الحوائج جل الواحد الأحد
فلا تروم نوالاً قط ما عدلت عن بابه من سواء الخير لم تجد



فلما كان التوسل بالفقر يقتضي ألا يكون للأغيار وجود ، ولا للأعيان
شهود ، والفقر لا يناسب الغنى ، ولا مناسبة بين الوجود والعدم ، ولا بين
الحدوث والقدم . . قال المؤلف رحمه الله :

وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ

كيف يكون التوسل إليك مني بفقري ولا نسبة بين فقري وغناك ، ولا
بين نعتي ووصفك ؟! والمتوسل إلى المتوسل إليه لا بد أن تكون نسبة
يتوصل بها إليه ، فكيف يتوصل إلى الله بما هو محال عليه ؟!

فرؤية الفقر تنبئ عن بقية رؤية شهود غير ؛ إذ الأحوال في حضرة
التوحيد أغيار ، والفقر من جملة الأحوال ، فلا سبيل إلى تحقيق الفقر إلا
بالغيبة عنه ، وما لم تغب عنه . . فأنت بعد لم تفن عن رؤية أحوالك ،
وحضرة التوحيد لا يليق فيها شهود غير الواحد الأحد .

فإذا ؛ لا وسيلة إليه بسواه ، ولا اعتماد على من دونه في جميع ما
يهواه ودفع ما يخشاه إلا إياه ، ولي في ذلك :

كيف التوسل في نيل المراد بما لا نسبة بينه والله مولانا
هكذا في القرب فأعرف حقَّ رُتبته أما إذا كنت في الأسباب فالآنا
وهذا رتبة في القرب ، وأما في مقام المعاملات .. فهو المطلوب
منك ؛ كما قلت في البيت : (أما إذا كنت في الأسباب .. فالآنا) أي :
آن لك أن تكون كذلك مقدماً لافتقارك وتقصيرك واعتذارك .



ولما كان حال القرب والشهود يقضي بأن الشكوى تشير إلى الغيبة
عن المشهود .. قال المؤلف رضي الله عنه :

أَمْ كَيْفَ أَشْكُو حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ؟!

الشكوى : هي كشف الحال ، وإظهار الحال عن مكنون السؤال ،
وذلك لا يكون لمن غاب عنه مكنونات الأحوال ، وعريت عنه خفيات
الأفعال ، وذلك على الله محال ، كيف وهو العالم بها قبل بروز العالم
من العدم ، وظهور أعيان الأمم ؟!

وذلك أيضاً عند شهود حقيقة الكشف والعيان يتأدّب عن خطوره
على الجنان ؛ بأن يتوهم غفلة أو نسيان ، وأما بروزه على اللسان
بالتضرع إلى الديان .. فلا حرج إذا كان عبودية واستيقان ؛ أنه لا يكون
إلا ما قد كان ، ولي في ذلك :

فكيف أشكو إليك الحال يا صمد وأنت عالم بما فيها من الشجن
أم كيف لا وأنت أهل أن تكون لها رباً تشكو إليك عظيم البث والحزن

أَمْ كَيْفَ أُتَرْجَمُ إِلَيْكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ !؟

(أم كيف) أي : عجباً كيف أترجم !؟ والترجمة : التفهيم باللسان عما انطوى عليه الجنان ، فكيف أبين أمراً وأنت الذي أبرزته على جناني قبل أن تنطق به لساني !؟ فعلمك المحيط الذي أحاط بأوائل الأمور وأواخرها ، وبواطن الأعيان وظواهرها ، فكيف الترجمة هنالك ؛ وإظهار ما هنالك ؛ إذ شاهد الحقيقة ذلك !؟ اللهم إلا أن تكون الترجمة باللسان عبودية للرحمن ، وإظهاراً لسرِّ غناه في شهادة الأعيان ، فذلك مطلوبٌ أيضاً من الإنسان في الشرائع والأديان ، ولي في ذلك :

فالترجمان لمن لا يفهم الخبر والله جلٌّ عن التشبيه بالبشر
لا تركزنَّ إلى التمثيل بالغير ولا تعطله عن عينٍ ولا أثرٍ

أَمْ كَيْفَ تَخِيبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَقَدَّتْ إِلَيْكَ !؟ أَمْ كَيْفَ لَا تَحْسُنُ أَحْوَالي
وَبِكَ قَامَتْ وَإِلَيْكَ !؟

فهذا من المصنف انعطاف ، إلى نيل الظفر والإسعاف ، بمزيد الألفاف ، وتملُّق بما تحقق من عظيم الفضل والإتحاف ، بنيل مأمول الوصل .

وهذا هو تحقيق رجاء السالكين ، وبغية نجباء المريدين ، وثمره غرس أعمال الصادقين ؛ أن يتحققوا في الله بحسن الظن ألا يخيب آمالهم الوافدة عليه ، والمتوجِّهة بكلية همَّتْها إليه .

والوفد : هو وصف القادم النازل المحبوب المفروح بقدومه ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا ﴾

(أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك) بفنائها عن نسبتها بسائر أحوالها وقواها ؟! وهذا من المصنف إشارة منه إلى تطوره في مظاهر الحقيقة وترقيته ، ولي في ذلك :

فكيف ترجع آمالي وقد وفدت إليك خائبة حاشاك يا صمد
وكيف لا تحسن الأحوال وهي كذا إليك نسبتها بالجود والمدد



فلما أنس من فضل الله ما لم يكن له به استعداد ، ورأى من تجلّي سرّ الوداد ما زاد على المراد .. أخذ في الاعتراف له بذلك ، وعدم استحقاق نفسه لما هنالك ؛ وذلك مما يعطيه مقام المعرفة ، فقال :

إِلَهِي ؛ مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي !! وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي !!

(إلهي) بمعنى اللطيف بي والحليم عني (ما أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي !! وما أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي !!) إلهي ، ومنتهى آمالي ، وبغية لطائف أحوالي ؛ ما أَلْطَفَكَ مَعَ عَظَمَتِكَ وَعَلُو كِبْرِيائِكَ بِي ؛ لمهانة صورتي وعظيم جهلي .

فلولا عظيم لطفك بي .. لما تخلفت عني عقوبة جرائمِي ، وهذا شأن أهل الإيمان ؛ كما روي في الحديث : « إن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخشى أن يقع عليه ، وإن المنافق يرى ذنبه كالذباب على وجهه قال به

هكذا»^(١) ، فرؤيته لذلك توجب الحياء من الله ، والوقوف على حدّ العبودية بالافتقار والذلة والانكسار .

وما أرحمك بي ؛ لأن سرّ رحمتك هو القيام بوجودي مع قبيح فعلي ، فقبيح الفعل : ما يجترحه العبد على خلاف أمر سيده ، فلا أقبح فعلاً ممن يستعين بعطائه وغوامر آلائه على معاصي سيده ، فهذا أقبح كل قبيح !! فلو لا عميم رحمته وشمول رأفته . . لأدركت العاصين لله أنواع العقوبات ، على ممر الساعات واللحظات ، ولي في ذلك :

لطائف الله للإنسان شاملة وإن تعاظم جهل فالإله علي
ورحمة الله في الأكوان سابعة لا تمتنع بقبيح الفعل والزلل



قال المؤلف رضي الله عنه :

إِلَهِي ؛ مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي !! وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ

(إلهي) بمعنى اللطيف في عظمته والداني في رفعة تعاليه (ما أقربك مني !! وما أبعدني عنك !!) ما أقربك بشمول إحاطتك بي ، واستغراق معيتك لباطني وظاهري وسائر لطائفي ، وقيام أمرك على سائر أحوالي ، وشهودك لسائر شؤوني المكنونة ، وسائر أعمالِي المتلونة ، وما أبعدني عنك في المناسبة والمشاكلة ، وفي الذات والصفات والأفعال . وذلك لظهور حكمته البالغة أن أوجد الخلق وجعل لهم ذوات

(١) رواه بنحوه البخاري (٦٣٠٨) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

وصفات وأفعالاً ؛ لتظهر عظمة ربوبيته العلية ذاتاً وصفات وأفعالاً على هذه الرقعة العبدية ذاتاً ووصفاً وفعلاً ، ولي في ذلك .

قُرْبُ الإله من الأشياء برحمته وما أحاط بها من علمه الأزلي ويُعدها عنه من حيث الصفات كما الذوات كذا الأفعال لا مثل

فمقام رؤية البعد : هو الذي يردُّ العبد إلى الطلب ، ومقام القرب : هو الذي يعطيه كمال الأدب ، وكلا الحالين في حق أهل الله خير ؛ فإن أقيموا في رؤيتهم لوجودهم .. فلما يقتضيه منهم من حق العبودية ، ويسمى عندهم بُعداً عن شهود تجلي أسرار الربوبية ، لا البعد الذي عُني به أهل الحجاب المبعدين في دركات العذاب .



وإذا تجلَّى عليهم بكمال صفاته ، ولاحت لأسرارهم أنوار ذاته .

كانوا بالحقيقة مجموعين ، وعن شهود الأغيار ممنوعين ، وهو القرب الذي أشار إليه ، وعند تجلي هذا المشهد الرحموتي قال المؤلف رضي الله عنه :

مَا أَرَأَيْتَ بِي !! فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ ؟!

لَمَّا رَأَى مِنْ عَظِيمِ الْقُرْبِ مَا غَيَّبَ عَنْهُ ظُهُورُ الْأَغْيَارِ ، وَطَمَسَ عَنْهُ رُؤْيَا الْأَثَارِ .. قال : مَا أَرَأَيْتَ بِي !! فَالْأَرْفَةُ مِنْ خِصَائِصِ فَائِضَاتِ الرَّحْمَةِ ، فَلِذَلِكَ تَسْمَى بِالرَّؤُوفِ ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي النَّاسَ لِرُءُوفٍ رَجِيمٍ ﴾ ، فَالْأَرْفَةُ : ظُهُورُ أَثَرِ الرَّحْمَةِ عَلَى الْمَرْحُومِ ، فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ وَلَيْسَ لِي مَشْهُودٌ سِوَاكَ وَلَا مَوْجُودٌ إِلَّا إِيَّاكَ ؟! وَلِي فِي ذَلِكَ :

في رأفتك علقْتَ الأمال يا صمد وكشف نور جمال الحق مشهود
فكيف يُحجب من نالته منك يد ولا يضام نزيل الفضل والجود

فمن آثار تلك الرأفة وظهور تلك الرحمة : ما أشهده قلوب أوليائه ،
واختصَّ به أرواح أصفياؤه ؛ من ظهور رحمته في كل شيء ، فلا يواجهون
في الأشياء إلا سر رحمته ؛ ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِلَهِي ؛ قَدْ عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْآثَارِ ، وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ : أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنَّ
تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ

(إلهي) بمعنى الظاهر لي برحمته ، والمتجلي لي في كل شيء
بتمام نعمته ، وكمال منته ، وعظيم محبته (قد علمتُ باختلافِ الآثارِ ،
وتنقُّلاتِ الأطوارِ : أنَّ مرادكَ مِنِّي أنَّ تتعرَّفَ إليَّ في كلِّ شيءٍ ، حتَّى لا
أجهَلَكَ في شيءٍ) وهذا العلم الذي أشار إليه هو ما اختصَّه الله به من
علمه المكنون ، وسرِّه المخزون ، الذي من علمه .. ارتقى به إلى رتبة
الكشف عما دخل تحت تكوين الكاف والنون

وإذا علَّمَ الله عبداً هذا العلم .. كان حكيماً ، وهو الحكمة المؤتاة
التي من أوتيتها .. فقد أوتي خيراً كثيراً باطناً وظاهراً .

واختلافها - أي : الآثار - تبصرة لذوي الأبصار ؛ ففيها ما لا يخفى
من نصاريف الاعتبار ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ ، فعبر أهل الاعتبار
إلى تحت ستور الآثار من اسمه النافع أو الضار ، وغير ذلك من تقلبات
الآثار .

فلو كان أقمّنتني في حالة واحدة لم تنقلني عنها : ضارة أو سارة ،
حلوة أو قارة .. لكنك ناقص المعرفة عن كمال ظهورك في متعددات
مظاهر ألوهيتك .

فإذا كان ما يتجلّى به من المؤلّمات والملائمات مما يورث العارف
زيادة معرفة .. فكانت الأشياء له كلها تعرّفات خاصة ونعماً من الله
سابقة ، وهو بعض وجوه الآية في قوله تعالى : ﴿ وَاسْبِغْ عَلَىٰكَ نِعْمَهُ وَظَهَرَ
وَبَاطِنُهُ ﴾ ، كما سمعنا ذلك غير مرة من شيخنا العارف بالله السيد الشريف
عمر بن عبد الرحمن علوي نفع الله به : أن النعم الظاهرة : هو ما ظهر
من النعم ، والباطنة : ما انطوى من التعرّف في المحن ، وكتب بذلك
مستشهداً به للشيخ علي بن محمد ^(١) بامزاحم ساكن بروم لما شكّا إليه
بعض ما ناله من المحن .

وإذا كان الأمر كذلك .. فالنعمة الباطنة فيها ما لا يخفى من المزيد
لسائر العبيد ؛ أما المقربون .. فلما تزداد به معرفتهم التي يصغر إلى
جنبها كل شيء من أصناف النعيم .

وأما أصحاب اليمين وعموم المؤمنين .. فلما ينالون من الثواب
الجسيم ، ويكفر عنهم من السيئات ، ويدفع عنهم من العقاب ؛ كما
وردت بذلك كله الأخبار ، وشهدت به الآثار .

وهذه التأثيرات كثيرة ؛ مثل : الصحة والمرض ، والغنى والفقر ،
والعز والذل ، والطاعة والمعصية ، ولك فيما ظهر منها تعرّف خاص ،
من تجلّي اسم خاص ، ولا يكون شاهداً للاسم وغائباً عن المسمى ،
وغاية النعيم ومنتهى كل مقصد ومطلب .. هو شهوده ، وتحقيق وجوده .

(١) في (أ) : (ابن أحمد) بدل : (ابن محمد) .

وأما تنقلات الأطوار . . فهي تنقلات الأحوال وتغاير الواردات ، فهي من متعلقات القلوب ، وتجليات أسرار الغيوب ، فهي لأرباب القلوب مشهودة ، وعند ذوي الأحوال موجودة ؛ كالقبض والبسط ، والخوف والرجاء ، والهيبة والأنس ، والوجد والفقد ، وكل ذلك أيضاً تعرفات وصفية وتجليات ذاتية ، يعرفها من وصل إليها ، وتحققها من طافت بسرّه لديها ، وأما عموم الخلق . . فليس لهم إلى تنقلات الأطوار سبيل ، وإنما هم في شهود اختلاف الآثار .

والإرادة محيطَةٌ بكل ذلك ، لا تنقلب عنها لمحّة ناظر ولا فلتة خاطر ، ومن أشرف على علم الإرادة . . كان تاركاً لاختياره ، راضياً عن الله في جميع ما يوصله إليه من نفع وضرر ، فلا أعز منه علماً .

فمن أراد غير ذلك - أي : رأى أن يكون بحالة يختارها لنفسه - فقد أعوز المعرفة ؛ فعبد الله يسأل الله أن يشعره لطفه وحسن اختياره له في كل ما قضاه ، ولا يطلب أن ينقله عن حاله هو فيها إلا ما قد علم أن الله يرضاه له ، كالإيمان مثلاً ؛ فإنه يطلب الثبوت عليه ، وكل ما علم أنه لا يرضاه له ؛ كالكفر وما والاها . . فيطلبُ الله أن يحفظه عنه ويعصمه منه ؛ وذلك لأن كل ذلك ليس من تدبير العبد واختياره ، بل من تدبير الله واختياره ، والشر فيه ظاهر ، والإيمان أيضاً الخير فيه ظاهر ، بخلاف ما عدا ذلك من سائر الأحوال ؛ فالأمر فيه غيبٌ لا يدري العبد خيره من شره ، فيكون عبدُ الله حيث أقامه ، ولا يكون ممن قلّ فهمه عن الله ؛ إن ورد عليه غير ملائم لطبعه وموافق لحظه . . سخط وتبرّم ، فيصدق عليه قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ . . . ﴾ الآية . ولكن المطلوب من العبد : أن يكون حريصاً على حق العبودية لله

في كل حالة تردُّ عليه من الله ؛ فأما إن كانت من قبيل النعمة .. فحقُّ العبد أن يقوم لله فيها بالشكر ، وإن كانت من قبيل الطاعة .. فشهود المِنَّة لله ، وإن كانت من قبيل الذنب .. فالتوبة والاستغفار ، وإن كانت من قبيل البلية .. فالصبر ، فالأمر دائر على هذه الأحوال ، ولي في ذلك :

لقد علمت بأنَّ الله حكمته	في اختلافات آثار المقادير
وما تلَوْن من حالٍ برحمته	في ما كمن تحت مكنون التبشير
أن يشهد العارف أنَّ الكل نعمته	في كل واردٍ من حكم المقادير
له زيادة قرب أو نيل منته	تحت المعاني وأطوار التصاوير

إِلَهِي ؛ كَلِّمًا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي .. أَنْطَقْنِي كَرْمُكَ ، وَكَلِّمًا آيَسَنِي
أَوْصَافِي .. أَطْمَعَنِي أَوْصَافُكَ

(إلهي) بمعنى المولى الكريم المتفضل ، المحسن الغني ، ذي الصفات العلا والأسماء الحسنى (كَلِّمًا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي .. أَنْطَقْنِي كَرْمُكَ ، وَكَلِّمًا آيَسَنِي أَوْصَافِي .. أَطْمَعَنِي أَوْصَافُكَ) .
كلما : يقتضي التكرار كذلك ، والعبد أبداً واقع في الأفعال التي تورث اللوم بين يدي سيده ؛ لأن العبد ناقص في الأصل ، فلا يصدر عنه من الأفعال إلا النقص ، والأفعال متفرعة عن الذات الصادرة عنها .

وقد علمت ما ذات العبد عليه من النقص ، فإذا شهد ما منه من الأفعال الناقصة الملوثة والخصال الرذيلة المذمومة .. أخرست لسانه

عن الكلام ، وإذا أشهد الصفات العلية ، والنعوت الكاملة الأزلية . .
غابت عنه صفاته ، واضمحل عنه شهود ذاته ، فرأى الكمال العلي
نطق وأوسع في الكلام ، كيف لا وقد لاح تيار الكرم العميم والفضل
العظيم ؟! فأنى يفنى المقال بعبارته ، أو تفصح المقالة بإشارته ؟!

كلا لا يصل تعبير المعبرين ، ومقال المتبحرين إلى غبرة من رماله ،
ولا رشحة من بحار نواله ، فكيف يقصر في الكلام عند شهود مواهب ذي
الكرم والجود ؟! أو كيف يئس عند تجلي اسمه الرحيم الودود ؟! فهنا
طمع في نبيله أهل المعاصي والجحود ، فكيف بأهل الإيمان والشهود ؟!
ولي في ذلك :

فكلما أخرستني قبح معصيتي لا شك تنطقني من وصفك الكرم
وكلما آيستني كل مفضضة مني إليك طمعت في فضلك العمم



ثم أخذ المؤلف في بيان ما العبد متَّصفٌ به من النقص في ما يصدر
منه على صورة الكمال ، فقال :

إِلَهِي ؛ مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيَهُ مَسَاوِي ؟!
وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيَهُ دَعَاوِي ؟!

(إلهي) بمعنى الكامل الموصوف بصفات الكمال ، والمنعوت
بنعوت الجمال والجلال (مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي . . فَكَيْفَ لَا
تَكُونُ مَسَاوِيَهُ مَسَاوِي ؟! وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ
دَعَاوِيَهُ دَعَاوِي ؟!) إذا كانت المحاسن المنسوبة مساوي ؛ لما قارنها من

النقص في النشأة ، وما يصحبها من القوادح الموجبة للبعد عليها إن لم يزكها الله ، ويخلصها من ذميم الإرادات الدنيئة . . فكيف لا تكون المساوي الظاهرة منه مساوي ؟!

والإنسان إذا لم يلاطفه الله ويتداركه بعصمته . . لا يخلو عن سيئة يستوجب العقوبة إن لم يتجاوز عنه الله ويعف ؟! وذلك لأنه انطوت في طي جبلته جميع الطبائع الحيوانية ، والصفات البهيمية ، والأخلاق الضارية السبعية ، فكيف يتصور خلوه عن شيء طبع في أصل خلقته ، وانتقش في طي جبلته ؟!

اللهم إلا أن يتفضل الله بفضله ، فتحيط به العناية الأزلية ، فتعلو فيه الصفات العلوية الصافية السماوية ، فتقهر تلك الصفات الأرضية ، وتتوالى عليه الواردات الإلهية ، والأسرار الحقية ، والأنوار الوصفية ، فلا جرم حينئذ أن يكون عليه من الكمال الإلهي ما يرفعه عن حضيضه السافل ، ويلحقه بذروة الأوج الكامل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، ولي في ذلك :

محاسن العبد إن ينظر إليه يرى فيها المساوي وكل في مندرج كيف المساوي إذا حققت ذاك فما يخلو عن السوء فيما قيل والخرج (ومن كانت حقائقه) فيما يزعم أن هناك للعبد حقائق . . فهي (دعاوي) لأن مسندها إلى العدم والعجز ، (فكيف لا تكون دعاويه) الظاهرة التي لا يخلو عنها أيضاً كل إنسان . . . [دعاوي] إلا من حققه الله بالشهود والعيان ؟!

فمن جملتها : شهود الغنى له في ذات أو صفة أو فعل ، ونسيان الافتقار كذلك أبداً ، فهذا من الدعاوي ، بل كل دعوى لم تصدر إلا

فرعاً عن هذا المشهد ، ولي في ذلك :

حقائق العبد في النسبة إليه سدى فلا لها مستند في الأصل يعضدها
فكيف ما كان من دعوى بغير يد بيان بطلانها أن ليس يشهدها

إِلَهِهِ ؛ حُكْمُكَ النَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ .. لَمْ يَتْرُكَا لِذِي مَقَالٍ مَقَالاً ،
وَلَا لِذِي حَالٍ حَالاً

(إلهي) بمعنى القاهر الحكيم (حُكْمُكَ النَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ ..
لَمْ يَتْرُكَا لِذِي مَقَالٍ مَقَالاً ، وَلَا لِذِي حَالٍ حَالاً) جهود نفوذ الحكم من
غير مبالاة بالأسباب ، وقهر المشيئة وغلبة الأمر .. هو الذي قطع قلوب
الخائفين ، وذلت له أبواب العارفين ^(١) ، فإن [نظرت إلى] ذي مقالة
فصيحة ، فغلبه الحكم ، فسُلبت .. [فانظر إلى] : بلعام [بن باعوراء]
بعد أن كان - كما قيل - يكتب عنه العلم ، فخرج من فيه كالحمام ، أو
كما قيل .

وإن نظرت إلى رفعة المحل وقوة الحال .. فلا أنزلة من صفيح
السماء ؛ فإن إبليس غلب عليه سابق الحكم ، وانبرم على شقائه سجل
الأمر ، أنزل كما ترى وطُرد - والعياذ بالله من سوء المقدور - مع ما كان
عليه من قوة الحال ، ورفعة المحل ، كما كان يعبد الله أربعة آلاف
عام ، فكفى بذلك مخوفاً لذوي العقول السليمة ألا يسكنوا إلى شيء
مما يبدو منهم من العلم أو العبادة ، وأن يكونوا كلما ازدادوا علماً ..

(١) في (ب) : (ودله أبواب العارفين) ، وفي (د) : (وولّه أبواب العارفين) .

ازدادوا خشية لله تعالى وخوفاً من أليم المكر وشدة سطوات القهر ، ولي
في ذلك :

نفوذ حكمك في الأشياء بلا سبب هو الذي حَيَّرَ الأبواب والمهجا
وللمشيئة قَهْرٌ لا يغالبه حال فكم فيه من علم قد اندرجا



ثم أخذ في بيان الأسباب التي يرجو بها العبد الفوز عند الله ، فقال
رضي الله عنه :

كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا ، وَحَالَةٍ شَيَّدْتُهَا ، هَدَمَ أَعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَذْلُكَ ، بَلْ
أَقَالَني مِنْهَا فَضْلُكَ

(كم من طاعة بنيتها) والطاعة : هي صفة قيام ظاهر العبد بالفعل
المأمور به ؛ من قول أو فعل : جازم وغير جازم ، فالجازم : هي الفرائض
المعلومة من الدين بالضرورة ؛ كفرائض الإسلام ، وغير الجازم ؛ كنوافل
الطاعات .

وبنيتها : هو الإتيان بها على وجه الاستقامة ، وحفظ سائر حدودها ؛
من أركان وشروط وسنن ، واجتناب منهياتها حرمة وكراهة ، وفعل ما
هو الأولى فعله ، وترك ما الأولى تركه ، وغير ذلك من وجوه الحفظ ،
وتحري المحافظة .

والحالة التي شيدتها : هي حالات القلب من تخليته من رذائله ،
وتخليته بمحاسن صفاته ، وإمعان النظر بغاية الجهد في دقائق خطراته ،
ولطائف حركاته ، حتى بلغت ما هو المقدور من جهدي في ذلك ،

فاعتمدت على ذلك ، واستندت إلى ما هنالك ، وطال لديّ ذلك .

فلما انكشف لي عن نعوتك العلية ، وصفاتك السنية ، وتجلياتك الأزلية التي لا تعلّل بعلّة ، ولا تكتسب بحيلة ، وظهر من أسمائك الجلالية اسمك العدل الذي لا يرد حكمه بسبب طاعة أو حسب أو نسب ، تعذب من تشاء وإن كان طائعاً ، وتغفر لمن تشاء وإن كان عاصياً . هدم ذلك اعتمادي على ما كنت معتمداً عليه دونك ، فهربت منها إليك ، ومن كل شيء دونك ، ورأيت أن الاعتماد على الأسباب دون مسببها ممّا يوجب العقاب ، فاستقلّتك مما كنت عليه معتمداً دونك ، فأقالني فضلك الذي هو معتمد الهاريين ، ومنتهى رغبات الأملين ، ولي في ذلك :

كم طاعة كنت أحسنت القيام بها	وكنت فيها كثير الهم مجتهدا
وحالة طال ما كنت اعتنيت لها	بتزكيتها مع الأنفاس مرتصدا
لما تجلّى ظهور العدل عطّلها	حتى علمت أنما غير الإله سدي

إِلَهِي ؛ إِنَّكَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدَمْ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلاً وَجَزْماً . . فَقَدْ دَامَتْ
مَحَبَّةٌ وَعَزْماً

(إلهي) بمعنى معبودي العالم بتفاصيل أحوالي ، وجريان أفعالي ، قبل مظهر صورتني وصور أعمالي (إِنَّكَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدَمْ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلاً وَجَزْماً . . فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةٌ وَعَزْماً) كما أوجدت فيّ ، وطبعت عليه جبلتي . . علمت - لا محالة - أنك تعلم ذلك مني ؛ إذ لا تخفى عليك تفاصيل أحوالي وجريان أعمالي .

وأنا أجد أنني وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً وجزماً ؛ كما هو شأن الدائبين على عبادتك ، والعاكفين في حضرة قدسك ، الذين لا يسأمون ، ولا يستكبرون عن خدمتك ، فأنا وإن كنت [لستُ] كذلك فعلاً وجزماً .. فأنا دائماً محبةً وعزماً ؛ أي : محب لها وللعاملين بها ، وقد ورد على لسان نبيك صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » ^(١) ، وأنا أحبُّ أن أعمل بها وأحب العاملين ، وعازمٌ على فعلها في كل آن ، فأكون بنية القصد والعزم عليها في زمرة العاملين ، وذلك غير مستنكر ولا مستبعد ؛ كما وردت بذلك الأخبار الدالة على أن العازم على فعل الطاعة في طاعة ^(٢) .

والعزم : هو عقد القلب على فعل ذلك ؛ فهو في ديوان الطاعات إن كان طاعة ، وفي ديوان المعاصي إن كان معصية ؛ لأن العزم هو تصميم القلب على الفعل ، فما بقي إلا عزم تقدير الحركة فيه ، والعجز عن الإتيان به ، ويبقى كذلك حتى يجد مساعدة القدر له فيفعل ، ومتى وجد ذلك ولم ينهض له .. فليس بعازم ، ولي في ذلك :

فأنت تعلم أنني فيك مبتغياً لطاعتك يا عظيم الفضل والمنين
حباً وعزماً لذاك السر مرتقياً إليك يا منتهى الآمال والسنن

فالعزم : مقتضى شهود العبد لأمر سيده ، والقهر : مقتضى فناء العبد عن سائر أفعاله ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .
(٢) كقوله صلى الله عليه وسلم : « من هم بحسنة فلم يعملها .. كتبت له حسنة » ، وقد رواه البخاري (٧٥٠١) ، ومسلم (١٣٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

إِلَهِي ، كَيْفَ أَعَزِّمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ ؟! وَكَيْفَ لَا أَعَزِّمُ وَأَنْتَ الْأَمْرُ ؟!

(إلهي) القاهر لمن سواه ، المعبود مستحق الامتثال ممن عداه
(كيف أعزم وأنت القاهر ؟! وكيف لا أعزم وأنت الأمر ؟!) هذا
مقامٌ يشير إلى النهاية والتمام ؛ إذ شهود القهر الذي هو وصف الحق
يقتضي من العبد ألا يكون له حركة ولا سكون في كليات أفعاله
وأحواله ، ولكن من وقف على ذلك دون شهود أمره . . وقع في
التعطيل والجبر .

وكيف لا أعزم وأنت الأمر ؟! لأن شأن العبد المبادرة لامتثال أمر
سيده إلى ما ندبه إليه ، وانزجاره عما زجره عنه ، فإذا كان على ما
ذكرنا ممثلاً الأمر ومنزجراً عن النهي مع شهود فناءه عن سائر أفعاله ،
واضحلاله عن كليات أحواله . . فقد قام بحق العبودية ظاهراً ، وتأدّب
للمربوبية باطناً ، وهذا غاية مطلب العلماء ؛ إسقاط سائر الأحوال والقوى
منهم باطناً ، والاستقامة على حد الأمر ظاهراً ، وبذلك وصلوا إلى صرف
الحرية ، ووقفوا على حقيقة الأمر ، ولي في ذلك :

فكيف أعزم وأنت القاهر الأجد وكيف لا وأنت حقاً الأمر الصمد
هذا الشهود مقام العبد بالرصد يكون فإن وباقي طالب المدد

إِلَهِي ؛ تَرَدُّدِي فِي الْأَثَارِ ، يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزَارِ ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ ، بِخِدْمَةِ
تُوَدِّعْنِي إِلَيْكَ

(إلهي) بمعنى مقصودي ، ومنتهى آمالي ، ووجه قلبي ، ومرادي

في توجهي وإرادتي (ترددي في الآثار يوجب بُعد المزار ، فاجمعي عليك بخدمة تؤديني إليك) .

التردد في الآثار : هو الانتقال في الأطوار ، وبقية التعلق بالأغيار ، والطمع في جنة أو خوف من نار ، أو ترقب أنوار ، أو مخاطبات للمقامات والأسرار ، أو تردد بين البراري والديار ، واستئناس بالأهل والجار ، والركون إلى المألوفات ، والاغترار بزخارف الإنعام والعقار ، وغير ذلك ولو إلى الألحان ومطربات الأوتار وتغريد الأطيوار ، فكل ما سوى الأحد القهار . . فالركون إليه أستار وبُعدُ مزار .

وقرب المزار : هو رفع الحجب والأستار [عن] الحسن الذي منه استعار كل ذي حسنٍ حسنه ، وبنوره كل كائنٍ استنار ، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

وكلما نأت بالمحب عن حبه الديار . . تكاثرت مظاهر الآثار ، وتكاثفت الأستار ، فلما أحسن ذلك . . سارع إلى الفرار ، ومدد أكف السؤال والافتقار في أن تتداركه من هذه المهالك والأخطار ، فقال بلسان الاضطراب : (فاجمعي عليك) لكثرة تغاير الأغيار ، ومدلهمات ظلمات الآثار ، فالجمع عليه : ألا يجعل فيه مساعاً لإرادة مراد غيره ، ولا اتساعاً لشهود سواه ، فيفر إليه مما سواه ، حتى يفر إليه من فراره .

والخدمة المؤدية إليه هي إدامة ذكره ، وإتمام فرائضه ، وتكميلها بنوافل الخيرات ، مع فتائه عن شهود نفسه في ذلك ، وعدم اعتماده عليه ؛ وذلك لما روي في الحديث القدسي : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه . . . » الحديث بطوله ^(١) ، وإذا كان كذلك في

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٣١) .

الخدمة دائباً ، وللمنة شاهداً ، وللنعمة شاكراً ، وفي البلية صابراً ، وعن المعاصي تائباً . . فقد حصل بعون الله على الاستقامة على جادة الطريق المثلى ، فالمرجو من فضل الله - كما يسر له تلك الأسباب - : ألا يخلق دونه الباب ؛ إذ هو المتفضل الوهاب ، ولي في ذلك :

ترددى بين آثار وأغيارٍ موجب لبعدى عن الأحباب والدار
فيا غيائاً لملهوف ومحتارٍ اجمع عليك بطاعات وإشار

إِلَهِي ؛ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ ، بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ؟! أَيْكُونُ لغيرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُ لَكَ ؟! مَتَى غَبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ ؟!

(إلهي) بمعنى الظاهر الأحد المبدع لأصناف الفطر ، والمظهر لسائر المعاني والصور (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟! أَيْكُونُ لغيرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُ لَكَ ؟! مَتَى غَبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ ؟!) هذا تعجبٌ ممن يظن أن الموجودات تدل عليه ؛ وإنما [ما] دلت عليه إلا من حيث ما أعطاه من الوجود ، ولو لم يكن ذلك . . لم يكن لها في ذاتها وجود ، فدل ذلك على أنه ما دل عليه من قبلها إلا وجوده فيها ، لا هي من حيث هي ، فهو الدليل على نفسه لا غير ؛ إذ افتقارها في إيجادها وإمدادها في قيام وجودها أدل دليل على انعدامها ، وأبين برهان على ظهور موجدِها ، وممدِّها في

قيام وجودها ، فمتى غاب ؟! ولو غاب ... لم يكن للوجود بأسره وجود ،
وديموميته برهانها قيام العالم ، واستمرار وجوده .

فأرباب الشهود والعيان غنوا بما واجه قلوبهم من ظهوره ، وشروق
نوره ، فلم يحتاجوا إلى الاستدلال عليه بما هو مفتقر في وجوده إليه ،
وكل ما سواه كذلك موسوم بالافتقار إليه ، ظاهر عليه سمة الاضطرار ،
وله الغنى المطلق .

أ يكون لغيره من الظهور ما ليس له ؟! هذا تقبيح من أرباب الشهود
المستدلين بالأشياء عليه ، ولكن من باب حسنات الأبرار سيئات
المقربين ، وليس تقبيح توبيخ ، إنما هو إغراء على ما هو الأولى ، وهذا
يحسن في قيام مناجاة الحبيب ، وتذلل المحب مع الحبيب ، فالدلالة
لا تكون إلا على غائب ، وأنت حاضر على خفيات الضمائر ، ولمحات
النواظر ، وفلتات الخواطر ، سامع وناظر ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ... ﴾
الآية ، فكيف توصل الآثار إليه والوصول لا يكون إلا إلى متحيز في
جهة ، والله منزّه عن الجهات ؟!

فمتى بُعد وهو القريب الداني ؟ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا
تُبْصِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، قُرب لا يماثله قرب الأجسام ،
من غير مماسة ولا استقرار ، ولا حلول ولا امتزاج ، بل على الأمر الذي
وصف ، والوجه الذي عرف ، فلا يوصل إليه بسواه ، ولا يُستدل عليه إلا
به ، ولي في ذلك .

كيف استدل عليه المستدل بما	هو من بدائعه في الذر والفطر
وكيف يوصل إليه ما به ظهرت	أعيانه من بديع الخلق في الصور
تبارك الله مُظهر كل كائنة	ومنشي أصناف ما في الكون من أثر

إِلَهِي ؛ عَمِيتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا ، وَخَسِرْتُ صَفْقَةً عَبْدٌ لَمْ تَجْعَلْ
لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا

(إلهي) بمعنى الرقيب عليّ (عَمِيتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا ،
وَخَسِرْتُ صَفْقَةً عَبْدٌ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا) .

(عَمِيتْ عَيْنٌ) فعَمَى العين القلبية هو العمى حقيقة ، قال الله
جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ،
وعَمَى عين القلب أشد من عمى العين الظاهرة ؛ إذ عمى العين
الظاهرة ينقضي بانقضاء الدنيا ، وعمى القلب في الدار الآخرة ،
﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى ﴾ عن مراقبة الله ، وعن النظر في آيات الله ،
والهجوم على محارم الله من غير حياء من الله ولا مبالاة ..
﴿ فَهَوِيَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ عن النظر إلى جمال الله ، وما أعدَّ فيها
لأوليائه .

ورؤيته عليها رقيباً هو مقتضى الإيمان ، والمراقبة : حالة قلبية تعطي
المراقب حالة يرى أن الله يراه في جميع ما يتعاطاه ، فيستحي منه أن
يراه حيث نهاه ، أو يفقده حيث أمره ، وهي لأرباب القلوب ، وهي برزخ
بين المحاسبة التي هي حالة أرباب الظواهر ، وبين المشاهدة التي هي
لأرباب السرائر .

قال بعض الحكماء في الدين : إن المراقبة نور ينبسط في الصدر ،
وهو من شعاع نور شمس الإحسان ؛ كالضوء على الحيطان .

(وخسرت صفقة عبد) أي : بيعته ، وما ربحت تجارته (لم تجعل
له) في سابق علمك (من حبك نصيباً) والحب من الله لعبده هو

أصل كل خيرٍ وغنم ، ومن جملته : ثناؤه عليه ، ومدحه إياه الذي لا يوازي بعمل .

ومن آثاره على الظاهر : الهداية للمحائب ، وصرفه عن المذام ، ومن محبته لعبده : أنه قد غفر له ، وبجّله ، ومدحه ، وأعدّ له الجزاء قبل إيجاده ، وهياً له أرضه وسماؤه ، وجنته وسائر نعمه وآلائه ، قبل إبرازه من خباء العدم ، بما نصّ عليه في كتابه القديم ، ووصفه العظيم ، الذي لم يسبق بفعلٍ من أفعال المخلوقين المرتبة فيه ، المضافة إليهم إضافة تشریف ، أو عيب وتعنيف .

ومحبة العبد لله فرع محبة الله له ؛ وهو ما يتقرّب به إلى الله من أنواع الطاعات ، واجتناب المنهيات .

والخطاب في قوله : (من محبتك نصيباً) إلى الله ، قال الله : ﴿ يُحِبُّهُمْ ﴾ ابتداءً من غير تقدّم عملٍ منهم يقتضي أن يحبهم لعله ، يتعالى عن العلل في سائر أفعاله ، ﴿ وَحُبُّونَهُ ﴾ بما أظهره عليهم من آثار محبته لهم ، التي هي الطاعة ؛ كما بيّنا ذلك .

ومن لم يجعل له من هذه المحبة المخصوصة نصيباً . فقد بان غبنه ، وخابت مطالبه ، وبانت خسارته ؛ بأن كسره انبعاثه ، فثبّطه عن التوجّه إليه ، والإقبال بوجه القلب عليه ، فنعوذ بالله من سوء القدر ، وما سبق به من حرمان الظفر بالوטר ، ولي في ذلك :

من لا يراك رقيباً ظل في ظلم	حيران أعمى عن الأنوار منحجب
وخاب عبداً خسراً في بيع صفقته	إن لم يكن لجناح الله منتسب
محبة الله في غيب القدم سبقت	لأهل السوابق في العليا بلا سبب

إِلَهِي ؛ أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكُسُوةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ
الْأَسْتَبْصَارِ ؛ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا ، مَصُونٌ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا ،
وَمَرْفُوعٌ الْهَمَّةِ عَنِ الْاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(إلهي) بمعنى وليّ أمري في الإدخال والإخراج ، الأمر لعبده في
كليات الأحوال ، ومكلفه وظائف الأعمال (أمرت بالرجوع إلى الآثار ،
فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار ؛ حتى أرجع إليك منها
مصون السر عن النظر إليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ؛ إنك
على كل شيء قدير) أمرت بالرجوع إلى الآثار لأداء ما توجه على العبد
من الحقوق الواجبة ، وما سبق له من الأقسام العاجلة ، حتى يستكمل ما
له منها ، ويؤدي ما وجب عليه ، فيرجع بعد كمال المعرفة واستخلاص
التوحيد بجميع أطواره ، فسأل المؤلف حفظ ما شهد من التوحيد ،
وأشرق عليه من أنوار التفريد : أن يُحفظ حال رجوعه إلى تفرقة التعديد
بين طبقات العبيد ، وتوارد الأضداد الذي منها : ما يشير إلى القرب ،
ومنها : ما يدعو إلى البعاد .

فإذا رجع إليها بكسوة الأنوار القدسية مؤيداً ، وبعزّ الأحدية مؤزراً ،
وبالمعارف الحقية مستبصراً . . . كان رجوعه إليها بالله ؛ لأنه صار له يداً
ومؤيداً ، وبصراً وسمعاً ، وغير ذلك من استغراق أنوار المعية الحقية ؛ ما
تغيب به الأعيان الخلقية ، فلا يأخذ منها شيئاً ، بل يأخذ منها ولا يكون
له اعتماد عليها ، ولا نظر إليها ، وكيف ينظر إليها وقد طويت بأنوار
موجدتها ؟! وكيف يعتمد عليها وقد اضمحلت في ظهور مبدعها ؟!
فلا جرم أن يرجع إلى الله إذا كان كذلك محفوظ السر عنها ، مؤيداً

بالنصر عليها ، كما دخلها بالله . . خرج إليه به ؛ إذ لم يحجبه عن شهود
سيده .

(إنك على كل شيء قدير) لأن الأشياء كلها على فلك اقتدارك
دائرة ، وتحت سلطان مشيئتك ناظرة ، فلا يعجزك حفظي عنها وأنا
شيء من هذه الأشياء ، وإذا توجهت قدرتك إلي بالتأييد ، ومشيئتك
بالتسديد . . لم تأخذني كثرة مظاهر التعديد ، ولم ينتصر علي كل
معاند عنيد ، ولي في ذلك :

لأهل النهايات أمر بالرجوع إلى مظاهر الخلق في الآثار والغير
ليكملوا كل نقص مثل ماكملوا وأيفاء حق وجب في سابق القدر
إذا سبق ذاك فأرجعني إليك كما دخلت منها مصون السر والنظر

إِلَهِي ؛ ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَحَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، مِنْكَ أَطْلُبُ
الْوُصُولَ إِلَيْكَ ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ ، فَأَهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ ، وَأَقِمْنِي
بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ

(إلهي) بمعنى العزيز في قربه ، والقريب في عزه ، واللطيف في
عظمته ، والعظيم في لطفه ، والمعبود بالاستحقاق على سائر العباد
(ذلّي ظاهرٌ بينَ يديك ، وحالي لا يخفى عليك ، منك أطلبُ الوصولَ
إليك ، وبك أستدلُّ عليك ، فاهدني بنورك إليك ، وأقمني بصدقِ
العبودية بينَ يديك) .

الذل : هو صفة العبد بين يدي السيد العزيز ، والمتفضّل الكريم ،
وهو روح العبودية لله ، وبمثل هذه المناجاة تحسن عند المفاجأة ، وبها

تقرع خزائن العطاء ، فإذا أراد الله إعزاز عبده . . عرّفه ذلّ نفسه ، وذبول
حسّيه ، وغيّبه عن رؤية أبناء جنسه ، حتى تحلوا له المناجاة ، وتصفوا له
المفاتيح .

وإذا أراد الله إهانة عبده . . حجبه عن ذلّ نفسه ، وأراه الحسن منها ،
وغطى عنه عيوبها ، وسلّط عليه الخلق ؛ ليشغلوه عن الله بالقليل والقال ،
ووعّر عليه مسالك الوصال ، وزيّن له طرق الضلال ، ومخالطة الجهّال
وأهل القسوة والضلال ، وحرّمه مجالسة الأبدال ، وحقّر إليه أهل الله
أهل الكمال ، نعوذ بالله من هذا الحال ، وجنبنا طريق الجهّال ، والغواية
[الضلال] (١)

(منك أطلب الوصول) إذ لا يُطلب الوصول إليه إلا به ، وهذا حال
العارفين ؛ لا يجدون سبباً يوصل إليه سواه ، ولا وسيلة يتوسل بها إلا
إياه ؛ لأنّ نظرهم لا يسبق إلى غيره ، بل مطالبهم وهمهم وقف عليه ،
(وبك أستدل عليك) إذ لا دليل عليك أظهر منك ، فكيف يستدل
بغيره وهو الذي أظهره ، وبياهر قدرته قدره ، وبمشيئته دبره ؟!

(فاهدني بتورك إليك) وهذا النور هو نور الإيمان الكائن في داخل
الجنّان ، وهو في القلب كالإنسان من العيان ، ويعبر عنه بالإيقان .

والإقامة يصدق العبودية لا تكون إلا بتأييد من الله لعبده ، وإلا
[لم] يخلص من شوائب وآفات ، وإذا حصل التأييد والإقامة من الله
كما ذكر . . حصل على الأدب ظاهراً وباطناً ، فاستسلم للأمر باطناً ،
وانقاد للأحكام ظاهراً ، ولي في ذلك :

ذلي له ظاهر والحال بادية لديه لم يخف حال العبد مولاه

(١) في النسخ : (الجهال) بدل : (الضلال) .

فمنك نطلب ما نرجو ولا حرج لأنَّ ما أئتمَّ غير الله نرجاه

إِلَهِي ؛ عَلِّمْنِي مِنْ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ ، وَصِّنِي بِسِرِّ اسْمِكَ الْمَصُونِ ؛ الَّذِي
إِذَا قُلْتَ بِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُنْ ﴾ .. فَيَكُونُ

(إلهي) بمعنى العالم بتفاصيل العلوم ، والمحيط بكل معلوم ،
الوهاب أنوار الفهوم ، لمن اختصه من العموم (عَلِّمْنِي مِنْ عِلْمِكَ
الْمَخْزُونِ ، وَصِّنِي بِسِرِّ اسْمِكَ الْمَصُونِ ؛ الَّذِي إِذَا قُلْتَ بِهِ لِلشَّيْءِ :
﴿ كُنْ ﴾ .. فَيَكُونُ) والعلم المخزون في خزائن : ﴿ تَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا
يَسْطُرُونَ ﴾ ، فمن علم ذلك العلم الذي هو كهيئة المكنون الذي ينطق به
العلماء بالله ، وينكره عليهم أهل الغرّة بالله ، هو العلم بما لا يدخل
تحت ظروف اللفظ والقول ، ويتعالى مشهده على ما فوق الحول
والطول ، ولا يتناهى فيه إلى الوصول .

وهو مفاتيح خزائن الغيب في أسرار الصفات لمعاني الذات ، الذي
تفنى عند التحقق بسائر اللذات ، حتى يغيب نعيم الجنات ، ولا يذوقه
إلا الذائقون من عباد الله ، الذين شربوا صرف شراب شهود نور الذات ،
الممزوج من شرابهم لأهل صفو الحالات ، أهل مقام الشهادات ، ويعبر
عن أنموذج من ظهوره في الدنيا بالعلم اللدني ، الذي يلقيه الله
لخواص عباده من غير تعلُّم ولا دراسة ، فيكشف مدخور ما ادخره حرف
من كلامه ، فينكشف ما وراء الغيوب الخمسة ؛ وهو الغيب العرشي ،
والغيب الكرسي ، والغيب السماوي ، والغيب الملكوتي ، والغيب
الجبروتي .

فعند انكشاف هذه الغيوب . . تطلع فجر الشمس الوصفية ،
والمعاني الذاتية ، وما لم يخرج عن مضيق دائرة الحسن ، ولم يشم
رائحة الكشف ، بل في تماويه وخيالات وغرور ، ودعاوي كاذبة وزور .
والصيانة بالاسم المصون : هو أن يصون سرّه عن الالتفات
إلى الأغيار ، والاعتماد على الآثار ، والانقهار تحت كثيف العادات ،
ورذائل الشهوات ؛ فمن انصان تحت صوان الاسم الأعظم من هجوم
بيان نعتات المهمات . . فيكون له حافظاً ، وعليه محيطاً وافياً ، ولي في
ذلك :

علمني العلم ذي من كان يعلمه
تعهده عالماً في السادة الأما
فعلمك اللي إليك انضاف جانبه
هو ما ادخر تحت صون الغيب واكتمنا
وسر إسمك كينان فعالمه
لم يخش ريباً ولم يعث به الزمنا

إِلَهِي ؛ حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ ، وَأَسْأَلُكَ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ الْجَذِبِ

(إلهي) بمعنى الولي بتدويري في سائر إراداتي ، الواهب لمن يشاء
الكنز الأعظم ، وهو التحقق بالمقام الأنهي (حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ ،
وَأَسْأَلُكَ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ الْجَذِبِ) التحقق بالحقائق القربية في منتهى
نهاية الفناء في المحبوب ، والظفر بالمنى ونيل نهاية المطلوب ، وهو

البقاء المحقق الذي من وصل إليه . . لم يجد وجوداً لغير الملك الحق ،
 فيغنى به عن تدبيره لنفسه ، فضلاً عن أن يكون له إلى الأغيار استناد
 في جلب نفع أو دفع ضرر ، وتخرق حجب الأكوان ببصيرته ، فيراها
 كشفاً محققاً ، فلا يعبأ بالخيالات الوهمية ، ومسالك أهل الجذب هم
 المؤهلون للمحبة في سابق العلم ، فهم المحبون المخطوبون للوصال ،
 الذين اختطفوا من الحضيض الأدنى ، إلى بحبوح القرب الأنهى ، من
 غير تعب ولا عناء ، بل محمولون في محفة المنّة ، فالسابق إلى قلوبهم
 وجود محبوبهم ، فلا يدخلون في الأشياء إلا به ، ولا يخرجون عنها إلا
 به ؛ لأنه السابق لهم بمحبته ، والمتولي لهم برعايته ، فهم أهل الفتح
 المبين ، ولي في ذلك :

يا من تحقق أسراراً بما وهبت	من منّة القرب حتى طاب مثواها
في حضرة الحق من توحيده امتلأت	وكان في قاب قوس القرب مأواها
اسلك بنا مسلكاً فاقت مراتبه	بجذبة منك وأتحفنا برؤياها

إِلَهِي ؛ أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ عَنْ تَدْبِيرِي ، وَبِاخْتِيَارِكَ عَنْ اخْتِيَارِي ، وَأَوْقِفْنِي
 عَلَى مَرَائِزِ اضْطِرَارِي

(إلهي) بمعنى المدبر المختار ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ
 الْخِيَرَةُ ﴾ (أغنني بتدبيرك عن تدبيرِي ، وباختيارك عن اختياري ، وأوقفني
 على مراکز اضطراري) الغنى بتدبير الله عن تدبير العبد لنفسه هي حالة
 الموحدين ، وسيما خواص عباد الله المقربين ، والاختيار كذلك ؛ لأن
 نور الكشف يعطي ذلك ، وضده هو المذموم ، هو تدبير العبد في أمر

لم يدبره فيه الشرع ، واختياره لأمر لم يدر فيه عين الصواب ، كما هو شأن المحجوبين والجهال المغرورين ؛ فلذلك سأل المؤلف أن يغنيه عنه بما يكشفه له من حسن اختيار الله له وتدييره ، ويوقفه على مستقر اضطراره ، وهذه هي حالة الأدباء ؛ أنهم لا يفارقهم اضطرارهم إلى مولاهم في سائر الأحوال ، ومراحون عن مقاساة التدبير والاختيار ؛ لما حمله عنهم من واردات الأنوار ، وصوله سلطان الحقيقة على الأسرار ، فهنا يحصل الغنى عن التدبير والاختيار .

ومن وقف علمه أو صنعته وعرفها بما هي عليه من العجز والضعف والجهل بعواقب الأمور . . وقف - لا محالة - عما ليس هو من مقتضى الربوبية ، وسلم الأمر وانقاد ، وسلم عن المنازعة في أحكام الله ، والمعاندة لأقداره ، ولزم مركز اضطراره ، ولي في ذلك :
يا من هو القادر المختار في الأزل قبل البروز إلى الأشباح والصور
سلك أغنني بك عما مني من خطل ونجني من حتوف الجهل والضرر

إِلَهِي ؛ أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي ، وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ
حُلُولِ رَمْسِي

(إلهي) بمعنى متولي أمري ، وقائد زمام أمري (أخرجني من ذل نفسي ، وطهرني من شكِّي وشركي قبل حلول رمسي) .

الإخراج الحقيقي : هو ما كان بالله لا بالنفس ، والذل الذي طلب المؤلف الإخراج عنه : ذل النفس لغير الله لمعنى يتوهمه من وصول نفع أو حصول ضرر ؛ وذلك لكثافة حجابها عمَّن بيده كل منافعها

ومضارها ، وأن الخلق فيما يصل على أيديهم آلات مسخرة لا تتحرك ولا تسكن إلا بتحركه وتسكينه ، فما لم تخرج عن رؤية الأغيار وظلمة الآثار . . . ذلت للمخلوقين لا محالة ، فطلب الخروج عن رقّ الأكوان إلى صرف صفاء عبودية الرحمن ، وهي الحرية المحققة التي من وصلها . . . صارت الأشياء له منقادة بحكم التسخير ، وهو لا ينقاد لغير سيده ومولاه .

والشك : هو سبب الحرص على الدنيا ، الموقع في حبائل الطمع والبخل وكل رذيلة ، والشرك : هو رؤيته أنّ لشيء من الأشياء تأثيراً دون الله في سائر المعتادات .

وهذه الأحوال مجانبية لحقيقة التوحيد ، مباينة لمعاني التفريد التي أتحف بها خواص العبيد ، وخذّ الشك : ضيق الصدر لأمر ينزل ، فيتبرم لذلك ، ويعتريه الهم والحزن والسخط ، ويظلم القلب لذلك ، وكلما ازداد ظلمة . . . ازداد حرجاً وضيقاً كأنما يصعد في السماء ، ويضاده شرح الصدر بنور اليقين ، وكلما كان نور اليقين أقوى . . . كان الانشراح أوسع ، ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ .

والشرك : هو انغمار القلب بظلمة البعد ، فينظر الأسباب هي المؤثرة ، فيتمكن الهوى من القلب ، وينكمش في طلب الأسباب من سائر وجوها ، فتستعبده وتستهويه ، وكلما كان فيها أمكن . . . كان من نور التوحيد أبعد ، عافانا الله من ذلك بمنه وكرمه ، ولي في ذلك :

يا منقذ الغارق المكروب في اللجج	أخرجني أدركني أنقذني من الحرج
من ذل نفسي لغير الله ذاك لها	سجن وقيد وعن طرق الهدى عوج
ومن شكوك عن الإيقان بائنة	وشرك الأغيار مر قاطع سمج

فمن لم يتطهر من هذه القاذورات ، ولم يباين هذه المذمومات في الدنيا قبل حلول الرمس ؛ وهو الموت الطبيعي . . توالى عليه كرباتهما في البرزخ ، وطالت معاناتها هنالك ، ولم يجد سبيلاً إلى التدارك لما فات ، فتوالى عليه مرارة الحسرات ، ومقاساة شدائد الكربات ، عافانا الله منها ، وزحزحنا من مهالكها ، ولطف بنا من مخاوفها وأحبابنا كذلك في الله وسائر المؤمنين ، قال :

بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَأَنْصُرْنِي ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي ، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي ، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي ، وَلِجَنَابِكَ أُنْسِبُ فَلَا تُبْعِدْنِي ، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي

هذه المعارف بحسب ترقّي العارف في مراتب القرب ؛ لأن أول مفتاح أبواب الملكوت الذي من عالم القلوب . . هو الإيمان .

وثمرته وحقيقته : التوكل على الله ، وحقيق بنيل ما طلب حيث صح له مقام التوكل ، لا يوكل إلى نفسه ولا إلى غير سيده ؛ كما قال الله - وهو أصدق القائلين - : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

ثم لما أقيم في مقام العبودية لله بالدعاء . . فقال : (وإياك أسأل) لأنك مشهودي ، وأنت غاية مأمولي ومقصودي ، فلا تخيبي كما قلت وقولك الحق : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

وفي فضلك الفائض الغامر لذرات الوجود أرغب وأطلب ، فلا تحرمني كما أنك أفضته عليّ قبل سؤالي ، فالمأمول من واصلك : ألا تحرمني بعد طلبي والتجائي ، والحرمان : هو القطيعة من الخيرات .

ولجنابك الذي لا يضام نزيله ، ولا يخيب دخيله أنتسب بالعبودية ،
 فلا تبعدني بأن تبدل مقامي وتغير اسمي ؛ بأن أكون عبداً لغيرك من
 هوى أو دنيا ، وببابك أقف فلا تطردني ، [و] وقوف العبد بباب سيده :
 هو لزومه لطاعاته ، والتعلق بمظاهر تجلياته ، وهذا غاية المطلوب ،
 ومنتهى المرغوب ، والطرد بضد ذلك : أن تجده مستعبداً بظاهره
 للأسباب ، ومتعلقاً بباطنه بها ، فلا انفكاك له عنها ، ولا انفلات له
 منها .

وهذه المعاني كلها مما يتأكد على المرید مراعاتها ، وإمعان النظر
 في مضمونها ؛ ليحذر من مهالك طرقاتها ، ففيها انقطع أكثر الخلق
 وهم لا يشعرون ، ولي في ذلك :

عليك متكلي يا من هو الله	فلا تكلني فذاك السؤال والجاه
يا ناصراً كل مستنصر به وعلى	كل النوائب والأهوال يرجاه
إياك أسأل غوث الطالبين ومن	إليه يرغب فإن الله مولاه
في فضلك الغامر الفائض عليه فلا	تحرم نزيلاً يوافي نزل مولاه
ومن جنابك فلا تبعد لمنتسب	أيضاً ولا تطرد الواقف لحوباه

إِلَهِي ؛ تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ
 مِنِّي ؟ أَنْتَ الْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النِّفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لَا
 تَكُونُ غَنِيًّا عَنِّي ؟

(إلهي) بمعنى الغني بذاته وصفاته وأفعاله (تقدَّسَ رضاك أن)

تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة مني ؟ أنت الغني بذاتك
عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنياً عني ؟ (١) هذه
العبارة ترقى في تجليات الأسماء والصفات ، وملاطفات من تعطفات
الطاف الذات .

فأول ما تجلت عليه من سماء الأسماء نجوم الأفعال الأزلية
والمعاني الأمرية ، ورأى ما هي عليه من التنزيه عن العلل والآلات
الخلقية . . نزّه ذلك المقام ؛ مما يتعاطاه الجهال والعوام ، بنسبتها
إلى العلل الحادثة بأفعال الأنام ، فقال : (تنزه رضاك) (١) ، كما قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعودُ برضاك من سخطك » (٢) ،
ولم يستعذ من سخطه بسبب من الأسباب ؛ لفناء الأسباب [و] علل
الانتساب ، ورضاه أثر من آثار وصفه على شيء رضي عليه ، وإذا
برزت آثارها على العباد . . تفرعت عنها أفعالهم من حسناتها وسيئها ،
فتسمى أفعالاً .

وأفعاله مقدسة عن العلل ، لا كما يزعم المعتزلة - قبح الله رأيهم
- بل فعله بمحض الاختيار ، فكل أفعاله وأحكامه كذلك لا علة تبعثه
على فعل شيء ، ولا عليه وجوب لخلقه ، وما كان من المصالح . .
فبمحض الفضل والكرم .

كذلك (أنت الغني بذاتك) كما أنت الغني بصفاتك وأفعالك (عن
أن يصل إليك النفع منك) لوجود غناك عن الأغراض المكملات ؛
لوجوب كمالك ، وثبوت جمالك وجلالك عن تطرّق نقص .

(١) كذا في النسخ مع أنه أوردها في الحكم قبل قليل بلفظ : (تقدس رضاك) .

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

ولي في ذلك :

تقدست صفة المولى عن العلل في سابق الأمر بل في حضرة الأزل
وهو الغني أبداً في عز رتبته عن أن يصل منه له نفع ولن يصل
وكل أفعال من دونه ولو حسنت لا يستحق بها قطع ولا وصل



وهذا توطئة منه لسؤاله وانطراحه تحت جريان الحكم ؛ لذلك قال :

إِلَهِهِ ؛ إِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ غَلَبَنِي ، وَإِنَّ الْهَوَى بِوَثَاقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي ،
فَكُنْ أَنْتَ النَّصِيرَ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى
أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلْبِي

(إلهي) بمعنى ذي القدرة القاهرة والمشية السابقة (إِنَّ الْقَضَاءَ
وَالْقَدَرَ غَلَبَنِي ، وَإِنَّ الْهَوَى بِوَثَاقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي ، فَكُنْ أَنْتَ النَّصِيرَ
لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ
طَلْبِي) إِنَّ الْقَضَاءَ السَّابِقَ وَالْحُكْمَ الْغَالِبَ غَلَبَنِي عَنْ أَلَّا آتِي إِلَّا
بِمَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ تَقْرِيْبٍ أَوْ إِبْعَادٍ ، أَوْ شَقَاءٍ أَوْ إِسْعَادٍ ، أَوْ مُوَافَقَةٍ أَوْ
عِنَادٍ .

وهذا من الاعتذار بين يدي الكريم الغفار ، اللطيف الستار ، ولكن
من حق الأدب : ألا يقطع النظر في الأفعال الملوثة عنه بمرة واحدة ،
بل يعطي الأدب حقه من إضافة هذه الأفعال إليه وإلى هواه وشهوته ؛
لتنزيه الجنب الإلهي عن مثل هذه الألفاظ ، فيشهد باطناً انفراد الله

بها دون علمه أو عمله ، وظاهراً يكون لائماً لنفسه وذاماً لها ، وإذا ألهم عبداً مثل هذا الاعتذار وقام فيه بالأدب باطناً وظاهراً . . فإن الله يريد أن يقبل عذره .

(فكن أنت النصير لي) على أعدائي (حتى تنصروني) عليهم بما أمددني به من جنود أنوارك ، وواردات تجليات أسرارك ، (وتنصروني) بعد كمال إرادتي ، ووصول مأمولي وبغيتي ، وتنصروني من اقتفى أثرى ، وانتحل محبتي من أبناء وقتي ، بما تلقىه عليّ من فائضات حكمتك ، ومشركات أنوار معرفتك ، وتلبسني من ملابس نفائس ولايتك ، فلا يراني عدوّ إلا ويرجع خاسئاً حسيراً ، ولا حبيب ومحب إلا ويكون قمراً منيراً ، ولا يلوح لي ذكر في فكر إلا ويخنس منه كل خاطر نفس وهوى وشيطان .

فهكذا النصر بالولي ؛ أنه جند الله لعباده الصادقين ، وسلم طريق السالكين ، وقدوة أسرار المريدين ، يتوب الله على الخاطيء ، ويدني القاصي ، ويرحم العاصي ، ويأخذ على صراط الله بالنواصي ، إذا رُئي . . ذكر الله ، وانخنس كل شيطان من الإنس والجان ، يحكم على الأمور بأمر إلهي ، ولا يحكم عليه شيء دون وليه .

(وأغني) بك عن طلبي الغنى بفضل الله ، والاكتفاء بنظر الله والرضا بتدبير الله (حتى أستغني) وهذا دأب الموحدين ، وشأن المؤمنين ، وطريقة المكاشفين ، وسمت العارفين ؛ كما أغنيت عن الطلب الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، حيث قال في حال ورود الحكم عليه : (حسبي عن سؤالي علمه بحالي) لما قال له جبريل حين رُمي به بالمنجنيق إلى نار نمرود : ألك حاجة ؟

قال : (أما إليك .. فلا ، وأما إلى الله .. فبلى) قال : سَلُهُ أَنْ
ينجيكَ ، فقال : (حسبي عن سؤالي علمه بحالي) ^(١) ، فاغتناؤه عن
جبريل ، وعن الملائكة الذين عرضوا عليه في تلك الأسباب ؛ كملك
الرياح وملك الماء ، فاغتنى بالفضل ، وتوالت عليه الألفاف ، وتوالت
عليه أنوار القرب ، فأغنته عن السؤال ، ولي في ذلك :
إن القضا غالب والعبد مغلوب وقوة القدرة القاضي على الدوب
غيره :

هذا لربك أما أنت يا فطن قل بالهوى أوثقتني شهوة البشر
فكن نصيري على الأعداء قاطبة وانصر كذلك بي من كان منتصر
وأغني بك يا ذا الفضل ثانية مني ومن سائر الأكوان والغير
فلا جرم إن سألتك هذا المقام العالي ؛ الذي يفني الأول والتالي .

أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ

فبذلك صرت لهم ولياً ، وبهم عمّن سواك حفيأً ، فبرز منهم ما برز
من توحيدك ومعرفتك ، فليس لأحدٍ إلى توحيدك سبيل إلا بما منك من
النور الذاتي ، ولا لأحدٍ إلى معرفتك وصول إلا بما تجليت من التجلي
الوصفي والنعته الفعلي ؛ فإشراق هذه الأنوار ، وتجلي هذه الأسرار ..
هو الذي أزال عنهم ظلمات الأغيار ، ومحا عن قلوبهم صور الآثار ،
وقهر لهم كل عتيد جبار .

(١) تقدم (ص ٤٥٨)

وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا غَيْرَكَ ، وَلَمْ
يَكُنْ لَهُمْ مَطْلُوبٌ سِوَاكَ ، أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ

(وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا غَيْرَكَ ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَطْلُوبٌ سِوَاكَ) بِمَا أَفْضَتْهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حُبِّكَ وَوَلَائِكَ
(أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ) .

فمقام الأنس بالله هو ثمرة محبته التي استخلصتهم عن الأغيار ،
وأوحشتهم عن الآثار ، ولم يملكهم أهل ولا عقار ، ولا وطن ولا دار ،
بل انفردوا في البراري والقفار ، وتغربوا عن الديار ، فراراً من الأغيار ،
فأنسهم بمشركات أنواره ، وألبسهم سراويل أسرارهم ، وأعدَّ لهم نزلاً
عظيماً ، ونعيماً مقيماً في دارٍ وأي دار ، وأعدَّ لهم مقعد صدق عند
ملكٍ مقتدر ، في جنة سقفها عرش الرحمن ، ينادون بالتحيات في
أقطار الأرض والسموات ، ويلقونه بأنواع الكرامات ، واحترقت من
الأزل إلى الأبد أنوار الأكوان ، وشاهدوا سرمديّة الملك الديان ، فدنت
إليه أسرارهم دنو محبٍ لحبيب ، فكانوا به أشدَّ أنساً من الولد إلى أمه ،
والمحب إلى حبه ، فكفاهم كل الهموم ، وباينتهم سائر الغموم .

فالتولي : هو إشراق الأنوار في القلوب التي تنشأ عنها المعرفة
والتوحيد ، والمحبة هي ناشئة عن المعرفة ، وثمرتها : الأنس بالله ،
وترك ما سواه ، والإدبار عما عداه ، ولي في ذلك :

أَنْتَ الَّذِي فِي قُلُوبِ الْأَوْلِيَا شَرَقَتْ	أَنْوَارُكَ الَّتِي بِهَا نَارُ الْحَنَادِيسِ
أَزَلْتَ عَنْهَا ظُلْمَ الْأَغْيَارِ فَأَحْتَرَقَتْ	كُلُّ السَّنَادِيبِ مِنْ مَقْتِ الْوَسَاوِيسِ
أَحْبَابُ صَدَقَ لَهُمْ أَنْسٌ إِذَا رَهَقَتْ	فِي غَيْهَبِ اللَّيْلِ أَوْجَاهُ الْمَفَالِيسِ

وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَ لَهُمُ الْمَعَالِمُ

أنت الذي سقت لهم الهداية إلى سبيل الولاية ، وحصلت منك لهم الرعاية ، حتى استقاموا على صراط العناية ، ولم تزل لهم حافظاً وبهم ملاطفاً ، حتى ظهر لهم سر وحدانيتك ، وحصلوا في مقام فردانيتك ، وكحلت أبصار بصائرهم بنور معرفتك ، فشهدوك لهم قريباً ، وأظهرت سر لطفك بهم ، فاتخذوك حبيباً ، ولي في ذلك :

أنت الذي أعطيت أنوار الهداية في ما هو مرادك من غي ومن رشد
هديت قوماً إلى التحقيق فانظر في علم الإله وما يحويه من مدد



فإذا تحقّق المريد بمقام التوحيد ، وفنيت عنه كثرة التعديد ، وشهده منه إليه أقرب من جبل الوريد . . غني به عن الأغيار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟! وَمَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟!

وجود الأغيار والافتقار إلى الآثار دليل على انطماس البصائر وذهاب نور الأبصار ، ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، فالحق ليس بمقصود ، بل هو الموجود دون كل موجود^(١) ، والحاضر عند كل شيء ، والشاهد على كل مشهود .

(١) قال العارف : (إلهي ؛ كيف أقصدك وأنت وراء القصد ؟! أم كيف أطلبك والطلب عين البعد ؟!) .

فما تفيض فائضة ، ولا تنطق لسان لافظة .. إلا كان عليها شاهداً ،
ولها محصياً حافظاً ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ الآية ، فصح أن فقدان
وجود الحق غاية العمى ، ومنتهى الفقد ، وغاية الطرد .

وماذا فقد من الأشياء العدمية من وجد الحق له حافظاً ، ولديه
حاضراً ، ومنه قريباً ، وله حبيباً ، ولسقمه طبيباً ، ولدعائه مجيباً ، وبتوليه
له واقياً ، ولفقاته كافياً ؟! فلا تغنيه عنه الأعراض ، ولا تسده دونه
الأغراض ، بل يكون وقفاً عليه ، لا يستغني عنه بالأعيان ، ولا يكفيه
دونه سائر الأكوان ، ولا يلهى عن محبته بانس ولا جان ، ولا يفتقر بعد
وجوده إلى الأغيار ، ولي في ذلك :

ماذا وجد من فقد نور الإله وما يغنيه عنه جميع الكون والصور
ومن وجد ذاك نال الكل فيه فما غير الإله وجود ثم معتبر



ثم لما بين حال الواجدين لله ، المغتنين بوجوده دون سائر الأكوان ،
وخسارة أحوال المحجوبين عنه بكثائف الأغيار ، والمطموسين في
ظلمات الآثار .. فقال مبيناً لأحوالهم ، وذاماً لسوء مقامهم ، فقال :

لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ عَنْكَ بَدَلًا^(١) ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَىٰ عَنْكَ مُتَحَوَّلًا ،
وَخَبِئَتْهُ ظَاهِرَةٌ ، وَتَجَارَتْهُ بَاطِرَةٌ

من رضي واختار عنك بدلاً ، فليت شعري ؛ ما يعيظه بوجود سيده ؟!

(١) في هامش (أ ، د) نسخة : (دونك) بدل : (عنك) .

وما الذي يروي صدق قلبه إذا فقد شهود ربه ؟ فلكل شيء بدل غيره ،
ولكل شيء عوض ، ولا يعيظ عنه شيء ، قال القائل في ذلك :
لكل شيء إذا فارقتَه عوض وليس لله إن فارقت من عوض
فلا حرماً وصال الاتصال به ففيه عافية ما بعدها مرض
والخسارة : وقوع النقص عند التعرض للربح ، وأي صفقة
أخسر ، وتجارة أبور ممن ابتغى عنه متحول ، ومن محالّ قربه
تنقل ؟ وكل طالبٍ لغيره كذلك في خيبة وخسارة ، وبوار تجارة ،
ولي في ذلك :

خاب الذي عنك يرضى بدلاً فمتى يغنيه عنك وجود الهالك الفاني
ويا خسارة من يبغى التحول عن قرب الحبيب فذاك المبعد العاني
كيف التحول أم كيف الشطون وما يلقي بدلاً عن المولى ولا ثاني

فإذا كان لا غير مقصود ، بل وجوده على الحقيقة مفقود ... تعجب
المؤلف رحمه الله فقال :

إِلَهِي ؛ كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ ؟! وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ
غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْأَمْتِنَانِ ؟!

الرجاء من غير الله من شأن المحجوبين ، وعلامة البعد من رب
العالمين ، فالرجاء : هو تأميل أمرٍ يُترقبُ حصوله ، ومن كان الله
مشهوده ... فلا يكون لغيره في الحوائج مقصود ، وشاهد حصول الآمال

ونيل كل نوال . . دوام فيض الإحسان ، فكيف يرجى غير مَنْ ألفت منه
العوائد الجميلة والمنن الثقيلة ؟!

وكيف تطلب من غيرك وغيرك لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، ولا
موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

وأنت مع ذلك ما بدلت عوائد الامتنان ، بل لم تزل المنن مديمة ،
والنعم لديهم مقيمة ، فلا يكون الطلب من غيره - بعدما علمت ما هو
عليه من عدم تبديل عوائد الامتنان - محموداً ، ولا يكون غيره لمهمات
الأمر مقصوداً ، ولي في ذلك :

ما يُرتجى غير مَنْ بالفضل موصوفٌ وعنده فائضُ الإحسان مألوفٌ
وكيف تطلب مَنْ لم ترج منه دون الإله الذي بالفضل معروفٌ

يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُوَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ

حلاوة الأنس بالحب للمحبين تنسيهم كل نعيم ، والأنس يقتضي
انبساط المحب ، وتدلي المحبوب ؛ فهي لديهم ألدُّ من نعيم الجنان ،
والأنس للمحبين خاصة ، ولهم في مقام الأنس آيات وصنوف إكرام
وسبوغ إنعام ؛ فمنهم [من] إذا أقيم فيه . . يقول : لو وضع السيف على
مفرقي وشقني نصفين . . لم أجد لذلك ألماً ، حتى قال الجنيد رضي الله
عنه : (كنت في صغري أسمع ذلك من السري ، وكنت أستبعد ذلك من
قبل حتى وجدته) أو كما قال ^(١) .

(١) تقدم (ص ٤٣٢) .

والمؤانسة تقتضي القيام بين يدي الحبيب ، فالقيام لا يكون حقيقة إلا للمستأنسين الذين غابت معالم الأكوان لديهم ، وذهبت محاسن الألوان عن قلوبهم ، فلم يروا غيره ، فقاموا له بصدق العبودية بين يديه متملقين ، والتملق : هو التلطف والتودد للحبيب ، ولا يحسن ذاك لغيره ، ولي في ذلك :

يا مَنْ أذاق أولي الأبواب خيرته شهد الشهود وصافي الأنس في الأزل
قاموا له بين مشتاق ومكتئب وشاكٍ من ضنا الأشجان متحلٍ



فمقام المحبة يقتضي الأنس بالحبيب ، ومقام التولي يقتضي الاستعزاز بالوالي العلي ؛ لذلك قال :

وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ

ولبس الهيبة هي القاهرة لساثر الأعداء ، ودامغة لباطل كل عنيد ، وذلة لكل صادق مريد ، والهيبة : هي ما يجده كل من واجههم من القهر على امثال أمرهم ، وتعظيم شأنهم وإن كانوا من الجهال العوام ، والأجلاف الطغام ؛ حتى الوحوش والأنعام ، فإنها تدين لهم بالإجلال والاحترام ، إلا من برز في حلة الجدال من أهل الزيغ والضلال ؛ فإنه يتجاهل بهم ويغض عن مقامهم مع ما هو متحقق به من علو مراتبهم .

والعزة : هي رفع همهم عن الأكوان ، وتعلق مطالبهم بجناب سيدهم ، واغتناؤهم به عن كل شيء سواه ، وعدم طلبهم لغرض إلا

إياه ، فهذا من عزة المؤمن المتصلة بعزة الله ونبيه ؛ حيث قال : ﴿ وَلِلَّهِ
الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولي في ذلك :

يا مُلَبِّسَ السَّادَةِ الْأَجْنَابِ هَيْبَتَهُ الْقَائِمِينَ بِعِزِّ اللَّهِ كُلِّ وَلِيٍّ
نَجَائِبِ الْكَوْنِ أَنْصَارَ لِسُنَّتِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَنَهْجِ الْحَقِّ مُعْتَدِلٍ



فلما تخلفت المظاهر الخلقية المسبوقة بالعدم بلائح أنوار القدم ..
عرف الشيء من أصله ، وردَّ الحق لأهله ، فقال :

أَنْتَ الَذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الَذَّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ الْبَادِيُّ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ
الْعَابِدِينَ ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ طَلَبِ الطَّالِبِينَ ، وَأَنْتَ الْوَهَّابُ لَنَا
ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ !!

هكذا شأن الموحدين إذا كرعوا مناهل اليقين ، وظهر لهم الحق
المبين .. يرون أولوية الحق في سائر الأفعال ؛ فالذكر من الذاكرين
حسب ما سبق من ذكره لهم بما ذكروه ، قال جلَّ من قائل : ﴿ فَادَّكُرُونِي
أَذْكُرْكُمْ ﴾ أي : ذكرني لكم حسب ما ذكرتموني ، وهذا فيه رائحة إخبار
عن ذكره لهم ؛ لأن ذكره قديم ، وهذا على حسب ما ذكرتموني ..
أذكركم ، فالقرآن قديم ، وهم حادثون : من أفعالهم وأوصافهم
وذواتهم ، وعلم الحق فيهم وبهم قديم ، فهذا ذكره لهم قبل بروزهم
من كتم العدم .

وبدو الإحسان كذلك أن أهلهم لطاعته ، وهياهم لعبادته ، وقربهم
لمحبته ، وواجههم برحمته قبل توجههم وتعبدهم ؛ فهو البادي

بالإحسان وفيض الامتنان قبل ظهور الأعيان ، وانبراء الأكوان ، ووجود
الإنس والجان ، بقوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما وهبهم من نور
الإيمان ، وتنزيل القرآن على أكمل عالم الإنسان ؛ محمد المصطفى من
عدنان [صلى الله وسلم عليه وتابعيه بإحسان] وإرساله إلى كافة الإنس
والجان ، وأهلهم للزوم كلمة التقوى بقوله : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ .

فالذكر : ممّا يختص بالمقربين والصفوة الدائبين ، والإحسان : ممّا
يختص به أهل الإحسان المكاشفين بأنوار الصفات الشاربين عين اليقين ،
والعطاء : لأهل التلقّي بالتلقين ، والآخذين عن الوسائط بعد مشاهدة
البراهين ؛ وهم عموم المؤمنين ، وعمّار أصحاب اليمين ، الآخذين في
علم اليقين ؛ فهم عالم الأفعال ، ووراء أسجاف الحكمة منتظرون .

وهو البادئ بالعطاء كما يحكم بذلك الشرع والعقل من قبل طلب
الطالبين ؛ لأن العقل يحكم أن أفعال الحق لا تعلّل بعلة ، ولا تنال
بقّعة ، فلا يكون طلب الطالب يوجد أمراً لم يكن في علمه أنه لا
يكون ، وما كان في علمه أنه يكون .. فما يفيد الطلب وتكلف معاناة
تعب السبب ، والإضافات إلى النسب ؟^(١)

وأنت الوهاب جميع ذلك ، والموصل إلينا ما هنالك ، ثم رفعت
شأن الإنسان على سائر الأكوان ؛ بأن نسبت إليه ما أنت واهبه ،
واستقرضت منه ما أنت موجدّه ، ووعدته عليه بجزيل الجزاء ، وتمام
الفضل في العقبى ، وتضعيف الثواب ، [في] الدنيا والمآب ؛ فأما في
الدنيا : فبالخلف الأكمل ، وفي العقبى : بالجزاء الأوفى ، فالحمد لله ؛

(١) فبقي الدعاء محض عبادة ، ونفعه بالنظر إلى معلق القضاء ، أما بالنسبة لمبرمه .
فيقال للداعي : رُفعت الأفلام وجفت الصحف .

فما أعظم مثته !! وما أتم نعمته !! يستقرض ما أعطاك ، يثيبك عليه في
عقبك ، وتنال به الشاء عنده في إعطائه ما هو ملكه !! ولي في ذلك :
ذكرك تقدم ذكر الذاكرين وما يذكرك عبد فذاك الذكر منك بدا
يا بادئ الكل بالإحسان منك فما للطائعين من الإحسان منك يدا
أنت الجواد بإعطا الفضل منك كما بديت بالكل يا مَنَّان يا صمدا
ثم أنت تستقرض العبد الضعيف أما أنت الذي توجد الأعيان والمددا

إِلَهِهِ ؛ أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ ، وَأَجْذِبْنِي بِمِنَّتِكَ حَتَّى
أُقْبَلَ عَلَيْكَ

(إلهي) بمعنى المبتدي بالإحسان ، والمتفضِّل بالعطاء والامتنان
(اطلبني برحمتك حتى أصل إليك ، واجذبني بمننتك حتى أقبل
عليك) .

الطلب من الله لعبده برحمته : هو عين ما هداه إليه من طرق
المجاهدات ، والتقرب إليه بنوافل العبادات ، وعرفه من أنواع البر
والكرامات ، فإن الله تعالى رحم العباد بطلب ذلك منهم ؛ لينالوا عظيم
ما عنده من الفضل العظيم ، والنعيم الدائم المقيم ، ووقاية من العذاب
الآليم .

فرحمهم بإرسال الرسل وإنزال الكتاب ، وأعطاهم أهلية الفهم
لذلك والقبول له ، وأعانهم على القيام بمقتضى ما عرفوه ، ثم مدحهم
وأثابهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وذلك مبتدأ منه من غير شعور

لهم بشيء منه ؛ لأنهم في أول شأنهم ومبتدأ خلقتهم لا علم لهم
بشيء ، ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ، فهذا من
الطلب منه برحمته ، فوصلوا إليه بما رحمهم به .

(واجذبني بمنتك) بعد الوصول إليك بالرحمة أو قبل الطلب ،
وذلك بمعنى الجذب قبل سبق سلوكٍ وتحري طاعة ؛ كما كان لطوائف
من المقربين ، والسادة المجذوبين ، والخصوص المحبوبين .

إما بعد سلوك .. فيتدارك بالجذب ، أو قبل ؛ بأن يختطف بجذبة
إلهية ، ونفحة ربانية ، وعطية امتنانية ، تخصه من بين أبناء جنسه ،
وتأخذه عن عالم حسيه ، وتلقيه في بحر شهود الذات العلية ، وتشهده
مظاهر الأوصاف القدسية ، ويكون بحكم الأولوية ، ولا يرى للأغيار
وجوداً ، ولا للآثار في قلبه شهوداً ، بل مستغرق السر والروح والقلب
في شهود الأحد المعبود ، وإن شاء الله به إرشاد العباد .. رده رحمة في
البلاء ، ونعمة سابغة على العباد ، يبيد العناد ، ويزيل الفساد ، ويمنح من
أطاعه صِرف الوداد ، مؤيداً بالروح الامتنائي ، ومؤزراً بالسِرِّ الصمداني .

فهذا معنى جذبة المنة والإقبال على الله على الدوام ، لا يكون إلا
للمحبوبين والخواص المجذوبين ، فلا يجدون للأغيار عندهم وجوداً ،
ولا للآثار في قلوبهم شهوداً ، فطلب المؤلف للوصول بالرحمة والجذب
ثانياً بالمنة ؛ ليكون متحققاً بكل المقامين ، عارفاً بمعنى الاسمين :
الباطن والظاهر ، الأول والآخر ، كما هو لأهل الكمال ، الكارعين مناهل
الوصال ، الحاكمين على الأحوال ، ولي في ذلك :

من كان بالرحمة الرحمن يطلبه إلى السلوك ونور الشرع يرعاه
ومن يكن ثم مجذوباً بمنتته هو المهنا وكهف القرب مأواه

إِلَهِي ؛ إِنَّ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ ، وَإِنْ خَوْفِي لَا يُزِيلُنِي
وَإِنْ أَطَعْتُكَ ^(١)

ذكر الخوف والرجاء هنا تنبيهاً منه على سرّ هذين المقامين
الشريفين ؛ لأن ظاهر الرجاء والخوف للعامة من العوارض الحادثة ،
يخافون عند وجود عارض حادث ، ويرجون كذلك ؛ فإن أقيموا في
مقام العدل ، الذي أثره في العبد المعصية وجزاؤها العقاب وأصناف
العذاب .. خافوا ، وإن أقيموا في الطاعة التي هي أثر الفضل في العبد
وجزاؤها الجنة .. رجوا .

والعارفون شاهدوا بواطن الأشياء ؛ إذ شاهد الخلق ظواهرها ،
فيشاهدون الصفات العلية والأسماء العلوية ، وهي لا نسبة بينها وبين
الأفعال الخلقية ، فلا يزايِلهم شهود العدل وإن أطاعوا ، ولا تغيب صفات
الفضل وإن عصوا ؛ فهم الذين قاموا له بحكم العبودية من غير علة .

وإذا شاهدوا الأفعال الصادرة عنهم .. لم يجدوها شيئاً بالإضافة
إلى ما هم مشاهدون من الصفات الحقية ، إن نظروا إلى الطاعة
الصادرة عنهم .. نادتهم الصفة العدلية وقوة نفوذها وعلية حكمها ،
فلم يعتمدوا على طاعتهم : ﴿ فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾
علماً منهم بأنها إن تجلّت بالحكم .. غلبتهم ، وإن نظروا إلى ما برز
منهم من المعصية .. نادتهم الصفة الفضلية : ﴿ يِعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى
أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

(١) في النسخ : (لؤمي لا يزايِلني وإن أطعتك) ، وشرح المصنف على المثبت أعلاه ،
وكذا في الحكم وشروحها أيضاً .

الرَّحِيمُ ﴿ ١ 〉 ، ﴿ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ ﴾ ، فلم يزل بهم ذلك ، فلم تزايلهم هذه شهود الصفات ،
ولا يعتریهم عما هم عليه ما يبرز عنهم من الحسنات والسيئات ، هذا
خلاف ما أهل الرسوم عليه ، وما عموم الخلق مستندون إليه ، ولي في
ذلك :

رجائي لا ينقطع عن فضلك العمم وإن عصيت فشأن العبد يا أنسان
والخوف من مكر جبار يكون وإن كنت المطيع وقم للعدل ميزان

إِلَهِي ؛ قَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ أَوْقَفَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ

هذا مفسر لما تقدّم من كلامه ، العوالم : جمع عالم ؛ وهي كل ما
سوى الله سبحانه ، إن اعتمدت على الطاعة . . لم أجدها مخلصاً لي
من عدلك إلا بما وعدت من جزيل كرمك وفضلك ، وإن شردت عنك
بالمعصية . . ردّني إليك بشمول رحمتك وسبوغ فضلك .

فعلى الحقيقة : إن العوالم كلها تسير إليك ؛ فالخوف سابق
إليك ، والرجاء داع لعبادك إليك ، وكل وصف من صفاتك ، أو اسم
من أسمائك ، أو فعل من أفعالك . . ناطقٌ بوحدانيتك ، ومشير إلى
صمدانيتك .

فاسمك الكريم يشير إلى أن الكريم لا تتخطاه الآمال ، ولا تنزل
بغيره نوازل الأحوال ، وغيره كذلك ، والمصائب والنكبات المؤلمة
ملجئة للعبد إلى سيده ، والعوارض والعوائق محبسة له وحائه ، وكذلك
النعم ، وسائر كل عالم من ملائم وألم ، ولي في ذلك :

إليك دفعتني الأكوان يا صمدا وعلمي أوقفني أن الفضل منك بدا

إِلَهِهِ ؛ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَهِينُ وَعَلَيْكَ مُتَّكِلِي ؟!

فلما تحقَّق ذلك .. عجب من أنه عبدُ الله ابتدأه بالإحسان ، وناداه بفوائد الامتنان ، قبل طلبٍ منه لذلك ولا تعرَّض ، فكيف يخيب بعدما ألبسه لبسة العرفان ، وتوجَّه بتيجان الإيمان ، وكَرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان ؟!

وكيف أهين بعد إعزازك إياي بنص القرآن ؛ بقولك : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقد أكرمتني بكرامة المحبة ، وأنلتني بفضلك رتبة القرب بقولك : ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ؟!

فذلك منك بدا من غير طلب منا ، ولا تعرَّض مناله ، أفتراك تذيقنا إهانة البعد بعد القرب ؟! أو تراك تهيننا بعدما وهبتنا ؟! ولي في ذلك :

حاشا تخيننا الإحسان يا أَمَلِي ولا تهين الذي بالله متكلي

إِلَهِهِ ؛ كَيْفَ أَعِزُّ وَفِي الدَّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ؟! إِلَهِهِ ؛ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُّ وَفِي الْفَقْرِ أَقَمْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُّ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي ؟!

هذه أمور متضادة وأوصاف متباينة ، تحيِّر فيها أولو العقول ،

وتتراحم فيها الأحكام والنقول ، ولكن أرباب الكشف إذا كُشفوا
بأسرار .. أعطتهم الاستغناء به ، والاعتراف بقربه ، وإذا وقفوا على
ضعف خلقيتهم وذلة عبوديتهم .. أعطتهم أن الافتقار لهم أصل ،
والذلة لهم وطن .

فكلما نظروا بعين الخلقية ، والذلة الأرضية .. قال : واعجباً ؛ كيف
أعزّ وفي الذلة أركزتني ، وجعلت فيها تصوير خلقتي ، وإليها مآب
تربتي ؟!

وإذا نظر إلى نسبة الخصوصية ، والرتبة الروحية ، والمنزلة العلوية ..
قال : كيف لا أستعزّ وإليك نسبتي ؟! ﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ ، و ﴿ يَعْبَادِي ﴾ ،
﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَنُ ﴾ ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

فإذا نظر إلى قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .. قال : كيف لا
أستعزّ وإليك نسبتي ؟! وإذا نظر إلى قوله : ﴿ تَرُدُّهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ..
قال : كيف أستعزّ وفي الذلة أركزتني ؟! وذلك بين لذوي الأسرار ، لا
غبار عليه ولا استتار ، ولي في ذلك :

فكيف أعزّ وفي ذلتي أركزني حكم الإله وهذا الشأن معلوم
أم كيف لا وإليك العبد نسبته تعطي بأنك للأكوان قيوم

أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ
الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَزَأَيْتُكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَأَنْتَ
الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(أنت الذي لا إله) يقصد ، ولا ربَّ يعبد (غيرك) إذ الغير متوجّه

إليه ، ومُقبل بالطوع والإذعان بين يديه ، ينادي بلسان افتقاره ، ويفصح عن فاقته واضطراره : (تعرّفت لكل شيء) بما أنت متجلّ به عليه ، ومتعرّف بالاقتدار عليه ، (فما جهلك شيء) ، بل مسبح ومنزه وموقر ومعظم بقولك : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، وبقولك : ﴿ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَحِيطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ .

(وتعرّفت إليّ) خاصة بما وهبتي من سرّ معرفتك ؛ فما جهلتك في شيء بجمالك وجلالك ، وفضلك وعدلك (حتى رأيتك ظاهراً في كل شيء) بالحكم والقدرة والقيام والأمر ، (فأنت الظاهر لكل شيء) بالقدرة القاهرة ، والمشیئة النافذة ، والمحجة الظاهرة بالأفعال والصفات ، الباطن عنها بالكنه والذات ، ولي في ذلك :

أنت الإله الذي لا مثل يشبهه ولا نظير من الأنداد حاشاه
لكل شيء تعرف بالذي ظهرت من سرّ قدرته تبارك الله

يَا مَنْ أَسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ ، فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْباً فِي رَحْمَانِيَّتِهِ ؛
كَمَا صَارَتِ الْعَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ

العرش : مستوى الرحمة التي وسعت الأشياء ، وأبرزت العوالم من ظلمة العمى ، وهي صفة من صفات الله ، إليها ينتهي مجموع أسرار الصفات ، فلها السبق على التفصيليات والإجماليات ، ومنها ظهر اختراع سائر الأكوان المُلْكيات والملكوتيات والجبروتيات .

والعرش : سقف العوالم العلويات والسفليات ، والحسيات والمعنويات ، والجسمانيات والروحانيات ، وهي من العلم الأزلي

كالصورة ، والعلم روحها ، والعرش من جملة الأركان ، وهو غيب فيها لسعتها ، ولها الأصالة ، والفرع عن الشيء يكون غيباً فيه لا محالة ، وهو مجلاها ومحل ظهورها واستوائها^(١) .

وسائر الأكوان غيبٌ في العرش ؛ لأنها مصرفة له ومندرجة تحت سمته ، وبوجوده ظهرت حكمة الله بإبراز كل ذي جسم وروح في هذا التجلي العرشي ، الذي هو مجلى مجموع السبع الصفات ، المعبر عنه بروح القدس ، فالأكوان غيبٌ فيه ، كما أنه غيبٌ في الرحمة ، والرحمة صفة ذاتية ، فاسم الرحمن تدخل تحته الأسماء الإيجادية ، ولي في ذلك :

فيا الذي هو رحمان فرحمته بالاستوا صار عرش الله غيب هبا
كما العوالم فيها وهو مظهرها دور فذاك لفعل الله منتسبا

مَحَوْتُ الْأَثَارَ بِالْآثَارِ^(٢) ، وَمَحَوْتُ الْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ

محو الآثار : هو اضمحلالها واندراجها ، فالجنة والنار والسموات وسائر الأقطار آثار ، وكلها بالإضافة إلى العرش وسعته متلاشية ، والعرش غيرٌ كما علمت ، وهو ممحوّ بأنوار الصفات العلية والتجليات الأزلية ، وفلك العرش : هو الفلك الأطلس الذي لا ينتهي سيره في الدنيا ولا في الآخرة ، وسائر الأفلاك تدور بدورانه .

(١) ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى هنا هو خلاصة إشارة ألمع لها إمامنا الغزالي في « إجماعه » و« مشكاته » .

(٢) في النسخ : (محقت الآثار بالآثار) بدل : (محوت الآثار بالآثار) .

وأفلاك الأنوار : هي الأسماء الحسنی ، وأفلاك الأقطار : هي ما دون الأثير إلى الثرى ، وهنا أسرار لا يجوز إذاعتها ، ولي في ذلك :
 محقت كل وجود في الوجود إذا كل الوجود إلى العرش المجيد بها
 والعرش في رحمة الله الإله كذا محو فلا يأتين الخلق منه نبا

يَا مَنْ أَحْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ

العزة : وصف يقتضي اضمحلال ما سواه ، وفناء كل ما عداه ،
 والسرادق : هو كل ما يحتجب به من محرقات الأنوار ، وورد « حجاب
 النار »^(١) ، وكل منيع الوصل يسمى عزيزاً ، والعزيز : هو الذي لا يجوز
 على الخواطر الارتقاء إلى مناله ، ولا يتصور لذي فهم أن يقصد تصويره
 بتكليف ، بل إيمان بوجوده بلا كيف ولا أين ، ولي في ذلك :

يا من كذا في حجاب العز ممتنع فلا إلى دركه بالكيف تصوير
 أنت الذي في جنان الخلد تتحفنا برؤية لا يُشَبِّها ريب تغرير

يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَسْرَارُ^(٢)

كمال البهاء : هو ما تجلَّى به لقلوب أوليائه من بديع لطفه حتى
 عرفوه ، وبتلطفه عُرِفَ ، وبقدر ما يدنو يكون اللطف أرق .

(١) تقدم تخريجه (ص ١٧٤) .

(٢) إلى هنا انتهت النسخة (د) .

كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ ؟! أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ ؟!
وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ وَبِهِ أَسْتَعِينُ

ثم أخبر عن إفاضة الألفاف عليه حتى شهدته ظاهر ، وتعجب ممن
يظن غيبته ، والرقيب : هو المراقب لخطرات الباطن ولمحات النواظر ،
بقوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ ، ﴿ أَقْمَنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾
بمعنى حاضر على كل نفس بما كسبت .

(والله الموفق) لما هو الحق عنده والمقبول لديه ، (وبه أستعين)
وهو خير معين ، والتوفيق في الأعمال البدنية والنيات القلبية . . إن
وافقت ما هو الحق عند الله ، والاستعانة . . في كل أمر باطناً وظاهراً .

والله أعلم